الأدب العالمي للناشئين

حول العالم في ٨٠ يومًا



جول فيرن

حول العالم في ٨٠ يومًا

حول العالم في ٨٠ يومًا

تأليف
جول فيرن

ترجمة
رضوى أبو شبيكة

مراجعة
هبة نجيب مغربي



حول العالم في ٨٠ يومًا

جول فيرن

Around the World in 80 Days

Jules Verne

الطبعة الأولى ٢٠١٣م
رقم إيداع ١٣٣٤٨/٢٠١٣

كلمات للترجمة والنشر
إن كلمات للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ‎+ ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢‎ **فاكس:** ‎+ ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣‎
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

فيرن، جول.
حول العالم في ٨٠ يومًا/تأليف جول فيرن . – القاهرة: كلمات للترجمة والنشر، ٢٠١٣.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٩ ٣٢٥ ٢

١–القصص الإنجليزية

أ–العنوان

٨٢٣

الغلاف: رسم إيمان إبراهيم، تصميم إيهاب سالم.

المحتويات

الفصل الأول

فيلياس فوج يَعْثُرُ عَلَى خَادِمٍ جَدِيدٍ

كَانَ السَّيِّدُ فيلياس فوج يَعِيشُ فِي ٧ شَارِع سافيل رو، بِلَنْدَنَ فِي إِنْجِلْتِرَا. وَمُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ، كَانَ شَاعِرٌ مَشْهُورٌ يَقْطُنُ فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ، وَقَالَ الْبَعْضُ إِنَّ فيلياس يُشْبِهُ الشَّاعِرَ، لَكِنْ لَمْ تَكُنْ تَجْمَعُهُمَا صِلَةُ قَرَابَةٍ. وَكَانَ فيلياس رَجُلًا طَوِيلَ الْقَامَةِ أَسْوَدَ الشَّعْرِ تَرْتَسِمُ الْجِدِّيَّةُ عَلَى مَلَامِحِهِ، وَقَدْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ مِنَ الْعُمْرِ فِي آخِرِ عِيدِ مِيلَادٍ لَهُ، وَبَدَأَ الشَّيْبُ يَخُطُّ شَعْرَ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ. وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْرِفُ عَنْ فيلياس فوج أَيَّ شَيْءٍ سِوَى مَلَامِحِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ ثَرِيًّا.

عَاشَ فيلياس وَحْدَهُ فِي الْمَنْزِلِ الْمَوْجُودِ فِي شَارِعِ سافيل رو وَمَعَهُ خَادِمُهُ. وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فيلياس مَوْجُودًا بِالْمَنْزِلِ، فَإِنَّهُ عَادَةً مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي نَادِي «ريفورم كلوب»؛ إِذْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْمَكَانَ الَّذِي اعْتَادَ أَنْ يَتَنَاوَلَ فِيهِ مُعْظَمَ وَجَبَاتِهِ. وَمَعَ تَغَيُّبِ سَيِّدِ الْمَنْزِلِ لِوَقْتٍ طَوِيلٍ مِنَ النَّهَارِ، لَمْ يَكُنْ لَدَى الْخَادِمِ قَائِمَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ الْمَهَامِّ الْيَوْمِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّ قَائِمَةَ الْمَهَامِّ الْقَصِيرَةَ كَانَتْ شَدِيدَةَ الْأَهَمِّيَّةِ.

كَانَ فيلياس فوج شَدِيدَ الِاعْتِنَاءِ بِالْكَيْفِيَّةِ الَّتِي يُرِيدُ بِهَا تَنْفِيذَ الْأُمُورِ؛ إِذْ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى نَحْوٍ شَدِيدِ الدِّقَّةِ. فِي الْوَاقِعِ، فِي ذَلِكَ الصَّبَاحِ طَرَدَ فيلياس خَادِمَهُ جيمس فورستر؛ لِأَنَّهُ أَحْضَرَ لَهُ مَاءَ حِلَاقَةٍ أَبْرَدَ دَرَجَتَيْنِ عَمَّا يُفترَضُ!

كَانَ فيلياس جَالِسًا عَلَى أَرِيكَةٍ فِي غُرْفَةِ مَعِيشَتِهِ، مُنْتَظِرًا وُصُولَ خَادِمِهِ الْجَدِيدِ. وَفِي أَحَدِ أَرْكَانِ الْغُرْفَةِ، كَانَتْ هُنَاكَ سَاعَةُ حَائِطٍ غَرِيبَةٌ، يَظْهَرُ بِهَا السَّاعَاتُ وَالدَّقَائِقُ وَالثَّوَانِي وَالْأَيَّامُ وَالْأَشْهُرُ وَالسَّنَوَاتُ، وَكَانَ فيلياس يَضْبِطُ حَيَاتَهُ عَلَى عَقَارِبِ تِلْكَ السَّاعَةِ، وَكَانَ تَحَرُّكُ عَقَارِبِ السَّاعَةِ جَمِيعِهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ مَشْهَدًا رَائِعًا.

كَانَتْ عَقَارِبُ السَّاعَةِ تُشِيرُ إِلَى الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَالنِّصْفِ إِلَّا بِضْعَ دَقَائِقَ فَقَطْ، وَكَانَ فيلياس فِي سَبِيلِهِ لِمُغَادَرَةِ الْمَنْزِلَ مُتَّجِهًا إِلَى نَادِي «ريفورم كلوب» فِي تَمَامِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَالنِّصْفِ. وَفِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، طَرَقَ جيمس بَابَ الْغُرْفَةِ ثُمَّ دَخَلَ، وَكَانَ قَدِ انْتَهَى لِتَوِّهِ مِنْ حَزْمِ أَمْتِعَتِهِ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى خَارِجِ الْمَنْزِلِ.

قَالَ جيمس: «الْخَادِمُ الْجَدِيدُ يَا سَيِّدِي.» ثُمَّ اسْتَدَارَ وَغَادَرَ الْغُرْفَةَ مُسْرِعًا.

تَقَدَّمَ شَابٌّ يَقْرُبُ عُمْرُهُ مِنَ الثَّلَاثِينَ وَانْحَنَى قَائِلًا: «اسْمِي جان باسبارتو.»

سَأَلَهُ فيلياس: «كَمِ السَّاعَةُ الْآنَ؟»

أَخْرَجَ باسبارتو سَاعَةَ جَيْبِهِ وَنَظَرَ فِيهَا بِإِمْعَانٍ وَقَالَ: «الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَاثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ دَقِيقَةً يَا سَيِّدِي.»

رَدَّ فيلياس: «إِنَّ سَاعَتَكَ مُتَأَخِّرَةٌ.»

– «عُذْرًا يَا سَيِّدِي، لَكِنَّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ.»

كَرَّرَ فيلياس: «إِنَّ سَاعَتَكَ مُتَأَخِّرَةٌ أَرْبَعَ دَقَائِقَ. حَسَنًا، بَدْءًا مِنْ هَذِهِ اللَّحْظَةِ: الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَسِتٍّ وَعِشْرِينَ دَقِيقَةً مِنْ يَوْمِ الْأَرْبِعَاءِ الْمُوَافِقِ الثَّانِيَ مِنْ أُكْتُوبَرَ لِعَامِ ١٨٦٧، أَنْتَ الْآنَ خَادِمِي.»

وَبِمُجَرَّدِ الِانْتِهَاءِ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ، هَبَّ فيلياس فوج وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ، ثُمَّ ارْتَدَى قُبَّعَتَهُ وَغَادَرَ الْمَنْزِلَ.

تَرَدَّدَ صَوْتُ إِغْلَاقِ الْبَابِ فِي الرَّدْهَاتِ الْخَالِيَةِ، وَحِينَئِذٍ هَمَسَ باسبارتو لِنَفْسِهِ: «يَا إِلَهِي! قَدْ رَأَيْتُ أَشْخَاصًا فِي «مُتْحَفِ شَمْعِ مَدَام تيسو» أَكْثَرَ حَيَوِيَّةً مِنْ سَيِّدِي الْجَدِيدِ!»

كَانَ باسبارتو يَبْحَثُ عَنِ الْمَكَانِ الْأَمْثَلِ لِيَعْمَلَ فِيهِ مُنْذُ أَنْ غَادَرَ بَارِيسَ قَبْلَ خَمْسِ سَنَوَاتٍ، وَعِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ فيلياس فوج يَبْحَثُ عَنْ خَادِمٍ جَدِيدٍ، اغْتَنَمَ الْفُرْصَةَ عَلَى الْفَوْرِ لِيَعْمَلَ لَدَيْهِ. كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ السَّيِّدَ فوج رَجُلٌ شَدِيدُ التَّنْظِيمِ وَيُحِبُّ تَنْفِيذَ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى نَحْوٍ مُعَيَّنٍ، وَكَانَ باسبارتو يَبْحَثُ عَنْ نِظَامِ عَمَلٍ جَيِّدٍ وَثَابِتٍ. وَفِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، كَانَ مَا أَرَادَهُ باسبارتو قَبْلَ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ هُوَ حَيَاةً مُنَظَّمَةً.

وَبَيْنَمَا كَانَ باسبارتو يَخْرُجُ مِنَ الْغُرْفَةِ وَمِنْهَا إِلَى الرُّوَاقِ، فَكَّرَ فِيمَا حَدَثَ قَبْلَ وَقْتٍ قَصِيرٍ. كَانَ مِنَ الصَّعْبِ التَّنَبُّؤُ كَيْفَ سَتَسِيرُ الْأُمُورُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّيِّدِ فوج مِنْ خِلَالِ هَذَا

اللِّقَاءِ الْقَصِيرِ، وَتَسَاءَلَ باسبارتو: «هَلْ سَأَتَمَكَّنُ مِنْ أَدَاءِ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي يَرْجُوهُ؟»

بَدَأَ باسبارتو فِي اسْتِكْشَافِ الْمَنْزِلِ اسْتِكْشَافًا تَامًّا، فَوَجَدَهُ مَنْزِلًا شَدِيدَ النَّظَافَةِ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَلْمَعُ، وَكَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي مَكَانِهِ. وَبَيْنَمَا كَانَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ فِي الطَّابِقِ الثَّانِي، وَجَدَ غُرْفَةَ نَوْمِهِ، وَوَجَدَ بِهَا أَجْرَاسًا كَهْرَبِيَّةً وَأَنَابِيبَ تَخَاطُبٍ لِتُسَاعِدَهُ عَلَى الْبَقَاءِ مُتَّصِلًا بِالطَّوَابِقِ السُّفْلِيَّةِ، كَمَا كَانَتْ هُنَاكَ سَاعَةٌ كَهْرَبِيَّةٌ فَوْقَ رَفِّ الْمُسْتَوْقَدِ، وَكَانَتْ شَدِيدَةَ الشَّبَهِ بِالسَّاعَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي غُرْفَةِ مَعِيشَةِ السَّيِّدِ فوج، بَلْ وَكَانَتْ تُظْهِرُ التَّوْقِيتَ نَفْسَهُ.

قَالَ باسبارتو: «سَيَكُونُ ذَلِكَ مُجْدِيًا! سَيَكُونُ مُجْدِيًا!»

ثُمَّ أَلْقَى نَظْرَةً خَاطِفَةً عَلَى السَّاعَةِ، وَلَاحَظَ أَنَّ قِطْعَةً مِنَ الْوَرَقِ مُعَلَّقَةٌ عَلَى الْحَائِطِ، وَكَانَتْ جَدْوَلًا بِمَهَامِّهِ الرُّوتِينِيَّةِ جَمِيعِهَا.

فَكَّرَ باسبارتو: «عَظِيمٌ! يُمْكِنُنِي الْآنَ أَنْ أَتَعَلَّمَ النِّظَامَ الْمُعْتَادَ أَيْضًا.»

كَانَ الْيَوْمُ بِالْكَامِلِ مُنَظَّمًا؛ إِذْ يَسْتَيْقِظُ السَّيِّدُ فوج فِي تَمَامِ الثَّامِنَةِ صَبَاحًا، وَيَجِبُ أَنْ يُحضِرَ لَهُ طَعَامَ الْإِفْطَارِ بَعْدَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ دَقِيقَةً بِالضَّبْطِ مِنْ ذَلِكَ، وَفِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ وَسَبْعٍ وَثَلَاثِينَ دَقِيقَةً يُحِبُّ أَنْ يَحْلِقَ ذَقْنَهُ. هَكَذَا عَرَفَ باسبارتو مَا يَجِبُ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظَاتِ الْيَوْمِ؛ فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ فِي الْحَقِيقَةِ نِظَامٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى مَلَابِسُ السَّيِّدِ فوج وَأَحْذِيَتُهُ كَانَتْ مُرَقَّمَةً وَفْقَ الْوَقْتِ الَّذِي يَرْتَدِيهَا فِيهِ، صَيْفًا كَانَ أَمْ خَرِيفًا.

بَعْدَ أَنِ انْتَهَى باسبارتو مِنْ رُؤْيَةِ كُلِّ كَبِيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ فِي الْمَنْزِلِ، قَالَ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «سَتَسِيرُ الْأُمُورُ بَيْنِي وَبَيْنَ السَّيِّدِ فوج عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ، هَذَا مَا كُنْتُ أُرِيدُهُ بِالضَّبْطِ.»

الفصل الثاني

فيلياس فوج يَقُولُ شَيْئًا قَدْ يَنْدَمُ عَلَيْهِ

غَادَرَ فيلياس فوج مَنْزِلَهُ وَقَطَعَ الْخَمْسَمِائَةِ وَخَمْسٍ وَسَبْعِينَ خُطْوَةً الَّتِي تَفْصِلُهُ عَنْ «ريفورم كلوب»، وَتَوَجَّهَ مُبَاشَرَةً إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ وَجَلَسَ عَلَى طَاوِلَتِهِ الْمُعْتَادَةِ، وَخَارِجَ غُرْفَةِ الطَّعَامِ مُبَاشَرَةً، كَانَتْ هُنَاكَ حَدِيقَةٌ يُحِبُّ النَّظَرَ إِلَيْهَا. أَحْضَرَ النَّادِلُ الْمُعْتَادُ لِفيلياس غَدَاءَهُ الْمُعْتَادَ، الَّذِي انْتَهَى مِنْهُ فيلياس — كَالْعَادَةِ — فِي تَمَامِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ وَسَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً.

انْتَقَلَ فيلياس بَعْدَ الْغَدَاءِ إِلَى الْقَاعَةِ الْكُبْرَى لِقِرَاءَةِ الصُّحُفِ، حَيْثُ أَمْضَى مُعْظَمَ النَّهَارِ هُنَاكَ، ثُمَّ عَادَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ لِتَنَاوُلِ الْعَشَاءِ، وَبَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنْ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ، جَلَسَ فِي غُرْفَةِ الْقِرَاءَةِ مَعَ بَعْضِ أَعْضَاءِ النَّادِي. فِي الْعَاشِرَةِ وَسِتِّ دَقَائِقَ، بَدَأَ لَعِبَ الْوَرَقِ مَعَ أَصْدِقَائِهِ.

وَكَانَ مِنْ ضِمْنِ أَصْدِقَاءِ فيلياس، الْمُهَنْدِسُ أندرو ستيوارت وَمَالِكُ الْأَرَاضِي توماس فلاناجان، وَكَانَ جون سوليفان وصموئيل فولنتين مَوْجُودَينِ هُنَاكَ أَيْضًا، وَكَانَا مِنْ مَالِكِي الصُّحُفِ، وَأَخِيرًا كَانَ هُنَاكَ رالف جوثير كَذَلِكَ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي بَنْكِ إِنْجِلْتِرَا. كَانَ الْجَمِيعُ يُرِيدُ مَعْرِفَةَ الْمَزِيدِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ عَنِ السَّرِقَةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي الْمَصْرِفِ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ؛ إِذْ إِنَّ اللِّصَّ قَدْ لَاذَ بِالْفِرَارِ وَبِحَوْزَتِهِ مَا قِيمَتُهُ خَمْسَةٌ وَخَمْسُونَ أَلْفَ جُنَيْهٍ اسْتِرْلِينِيٍّ، وَكَانَ هَذَا الْخَبَرُ يَمْلَأُ جَمِيعَ الصُّحُفِ.

سَأَلَ جون سوليفان: «هَلَّا بَدَأْنَا أَيُّهَا السَّادَةُ؟ فَإِنَّنِي أَتَطَلَّعُ إِلَى مُبَارَاتِنَا فِي لُعْبَةِ بريدج.»

ثُمَّ نَاقَشُوا مَنْ سَيُوَزِّعُ الْوَرَقَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ بَدَءُوا اللَّعِبَ. وَبَيْنَمَا اسْتَغْرَقَ الْجَمِيعُ فِي اللَّعِبِ، سَأَلَ توماس فلاناجان: «مَا رَأْيُكَ فِي هَذِهِ السَّرِقَةِ يَا رالف؟»

قَاطَعَهُ أندرو ستيوارت: «سَيَخْسَرُ الْبَنْكُ هَذِهِ النُّقُودَ بِلَا شَكٍّ!»

فَأَجَابَ رالف: «عَلَى الْعَكْسِ، أَعْتَقِدُ أَنَّنَا سَنَتَمَكَّنُ مِنْ إِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَى ذَلِكَ اللِّصِّ! لَقَدْ أَرْسَلْنَا مُحَقِّقِينَ إِلَى جَمِيعِ أَرْجَاءِ الْبِلَادِ وَإِلَى جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ، وَلَنْ يُفْلِتَ مِنْ أَيْدِينَا.»

سَأَلَ أندرو: «إِذَنْ، هَلْ تَعْرِفُونَ مُوَاصَفَاتِهِ؟»

أَجَابَ رالف: «إِنَّهُ لَيْسَ لِصًّا عَادِيًّا بِالتَّأْكِيدِ.»

ضَحِكَ أندرو وَقَالَ: «لَقَدْ هَرَبَ بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَالِ! مَاذَا تَعْنِي بِأَنَّهُ لَيْسَ لِصًّا عَادِيًّا؟»

أَجَابَ رالف: «إِنَّهُ مِنَ النُّبَلَاءِ. عَلَى الْأَقَلِّ هَذَا مَا تَقُولُهُ الصُّحُفُ.»

وَأَخْبَرَهُمْ رالف أَنَّ عَدَدًا مِنَ الْأَشْخَاصِ كَانُوا قَدْ رَأَوْا رَجُلًا مُهَنْدَمًا مِنَ النُّبَلَاءِ فِي الْغُرْفَةِ نَفْسِهَا الَّتِي اخْتَفَتْ مِنْهَا الْأَمْوَالُ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ نَفْسِهِ الَّذِي سُرِقَتْ فِيهِ النُّقُودُ. وَكَانَتِ الشُّرْطَةُ عَلَى قَنَاعَةٍ بِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ هُوَ الَّذِي ارْتَكَبَ الْجَرِيمَةَ؛ حَيْثُ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَخْصٌ آخَرُ قَدْ شُوهِدَ فِي الْغُرْفَةِ. وَأَضَافَ رالف أَنَّ الْبَنْكَ قَدْ عَرَضَ مُكَافَأَةً لِلْمُحَقِّقِ الَّذِي يَتَمَكَّنُ مِنَ الْقَبْضِ عَلَى اللِّصِّ، وَكَانَتْ مُكَافَأَةً مُجْزِيَةً قَدْرُهَا أَلْفَا جُنَيْهٍ اسْتِرْلِينِيٍّ!

سَأَلَ أندرو: «إِلَى أَيْنَ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَيَذْهَبُ إِذَن، إِذَا كَانَ لَدَيْكُمْ رِجَالٌ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ؟»

قَالَ توماس: «أُوه! إِنَّ الْعَالَمَ كَبِيرٌ بِمَا يَتَّسِعُ لِاخْتِبَاءِ شَخْصٍ يَتَمَتَّعُ بِالذَّكَاءِ.»

رَدَّ فيلياس — بَيْنَمَا كَانَ يُوَزِّعُ الْوَرَقَ حَوْلَ الطَّاوِلَةِ: «لَقَدْ كَانَ كَذَلِكَ.»

سَأَلَ أندرو: «مَاذَا تَعْنِي؟ هَلْ أَصْبَحَ الْعَالَمُ أَصْغَرَ؟»

قَالَ رالف: «بِالطَّبْعِ! إِنَّنِي أَتَّفِقُ مَعَ فيلياس؛ إِذْ يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ السَّفَرَ أَسْرَعَ هَذِهِ الْأَيَّامَ، وَلِهَذَا السَّبَبِ تَحْدِيدًا سَوْفَ نَتَمَكَّنُ مِنْ إِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَى اللِّصِّ، حَيْثُ سَنَظَلُّ مُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ بِخُطْوَةٍ مِنْ خِلَالِ وَضْعِ مُحَقِّقِينَ فِي أَيِّ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْعَالَمِ يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْتَبِئَ فِيهِ.»

قَالَ أندرو: «أَهَا! لَكِنْ قَدْ تَكُونُ هَذِهِ هِيَ الْوَسِيلَةَ عَيْنَهَا الَّتِي يَهْرُبُ بِهَا اللِّصُّ.»

قَالَ رالف: «رُبَّمَا، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يُغَيِّرُ حَقِيقَةَ أَنَّ الْمَرْءَ يُمْكِنُهُ الْآنَ أَنْ يُسَافِرَ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ.»

قَاطَعَهُ فيلياس: «فِي الْوَاقِعِ، فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا فَقَطْ.»

قَالَ جون: «إِنَّ فيلياس مُحِقٌّ، تَقُولُ الْجَرِيدَةُ إِنَّ السَّفَرَ حَوْلَ الْعَالَمِ الْآنَ يَسْتَغْرِقُ ثَمَانِينَ يَوْمًا فَقَطْ بَعْدَ أَنِ اكْتَمَلَ خَطُّ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ الضَّخْمُ فِي الْهِنْدِ.» وَفَتَحَ الْجَرِيدَةَ لِيُرِيَهَا لِأَصْدِقَائِهِ مُضِيفًا: «انْظُرُوا هُنَا، إِنَّهَا تَرْسُمُ الرِّحْلَةَ كَامِلَةً بِالتَّفْصِيلِ.»

أَخَذَ كُلٌّ مِنْهُمْ دَوْرَهُ فِي النَّظَرِ إِلَى الصَّحِيفَةِ حَيْثُ كَانَ هُنَاكَ وَصْفٌ بِالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ يُوَضِّحُ كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْمَرْءِ السَّفَرُ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا.

قَالَ رالف: «حَتَّى فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، ذَلِكَ لَمْ يَضَعْ فِي الِاعْتِبَارِ الطَّقْسَ السَّيِّئَ أَوِ الْحَوَادِثَ أَوْ الْعَدِيدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى الَّتِي قَدْ تُفْقِدُ الْمَرْءَ طَرِيقَهُ.»

قَالَ فيلياس: «كُلُّ ذَلِكَ وُضِعَ فِي الِاعْتِبَارِ.»

جَادَلَ رالف: «مَاذَا عَنِ الْمُشْكِلَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ بِالسِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ أَوْ فِقْدَانِ الطَّرِيقِ؟»

قَالَ فيلياس: «ذَلِكَ وُضِعَ فِي الِاعْتِبَارِ أَيْضًا؛ فَالْجَرِيدَةُ وَضَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فِي الِاعْتِبَارِ، كُلُّ شَيْءٍ مُحْتَمَلٌ أَنْ يَسُوءَ، وَكُلُّ تَأْخِيرٍ مُحْتَمَلٌ أَنْ يَحْدُثَ. يَحْتَاجُ السَّفَرُ حَوْلَ الْعَالَمِ لِثَمَانِينَ يَوْمًا فَقَطْ.» وَوَضَعَ أَوْرَاقَهُ عَلَى الطَّاوِلَةِ وَأَكْمَلَ: «وَرَقَتَانِ رَابِحَتَانِ! لَقَدْ رَبِحْتُ هَذِهِ الْجَوْلَةَ!»

جَمَعَ أندرو أَوْرَاقَ اللَّعِبِ وَخَلَطَهَا وَوَزَّعَهَا وَقَالَ: «رُبَّمَا تَكُونُ عَلَى حَقٍّ، وَلَكِنَّنِي مَا زِلْتُ لَا أُصَدِّقُ أَنَّ هَذَا مُمْكِنٌ يَا فيلياس.»

أَجَابَ فيلياس: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ مُمْكِنٌ.»

ابْتَسَمَ أندرو وَقَالَ: «لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَمَا رَأْيُكَ أَنْ نَتَرَاهَنَ؟ أُرَاهِنُ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ جُنَيْهٍ اسْتِرْلِينِيٍّ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ السَّفَرُ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا فَقَطْ.»

أَصَرَّ فيلياس: «إِنَّهُ مُمْكِنٌ جِدًّا.»

قَالَ أندرو: «إِذَن لِمَ لَا تَقُومُ بِذَلِكَ؟!»

أَجَابَ فيلياس: «تَرُوقُنِي هَذِهِ الْفِكْرَةُ كَثِيرًا، وَسَأُرِيكَ بِنَفْسِي أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ السَّفَرَ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا فَقَطْ.»

سَأَلَ أندرو: «إِذَن فَأَنْتَ تَقْبَلُ رِهَانِي؟»

ابْتَسَمَ فيلياس وَقَالَ: «بِالطَّبْعِ، كَمَا أَنَّ لَدَيَّ عِشْرِينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ اسْتِرْلِينِيٍّ فِي الْبَنْكِ أَنَا مُسْتَعِدٌّ أَنْ أُرَاهِنَ بِهَا.»

قَالَ صموئيل: «تَوَقَّفَا، هَلْ أَنْتُمَا جَادَّانِ؟»

صَاحَ أندرو: «أَنَا جَادٌّ!»

وَقَالَ فيلياس: «وَأَنَا كَذَلِكَ!»

فَقَالَ توماس: «جَيِّدٌ جِدًّا، نَحْنُ جَمِيعًا هُنَا لِنَشْهَدَ أَنَّ فيلياس فوج سَيُحَاوِلُ أَنْ يَرْبَحَ رِهَانَهُ مَعَ أندرو ستيوارت بِالسَّفَرِ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا.»

قَالَ فيلياس: «صَحِيحٌ! سَوْفَ أَقُومُ بِجَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا أَوْ أَقَلَّ.»

قَالَ الْخَمْسَةُ رِجَالٍ مَعًا: «جَيِّدٌ جِدًّا!»

قَالَ فيلياس: «جَيِّدٌ جِدًّا! هُنَاكَ قِطَارٌ سَيُغَادِرُ اللَّيْلَةَ إِلَى مَدِينَةِ دوفر فِي الثَّامِنَةِ وَخَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً، سَأَكُونُ عَلَى مَتْنِهِ.»

سَأَلَهُ أندرو: «مَسَاءَ الْيَوْمِ؟»

أَجَابَ فيلياس: «نَعَمْ، مَسَاءَ الْيَوْمِ.» وَأَخْرَجَ رُوزْنَامَةَ تَقْوِيمٍ صَغِيرَةً مِنْ جَيْبِهِ، وَنَظَرَ فِيهَا بِتَمَعُّنٍ قَائِلًا: «الْيَوْمَ الْأَرْبِعَاءُ الْمُوَافِقُ ٢ أُكْتُوبَرَ، وَسَوْفَ أَعُودُ إِلَى هَذِهِ الْغُرْفَةِ فِي تَمَامِ الثَّامِنَةِ وَخَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً مِنْ مَسَاءِ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُوَافِقِ ٢١ مِنْ دِيسَمْبَرَ، وَإِلَّا فَسَتَكُونُ أَمْوَالِي مِلْكًا لَكَ.»

وَكَعَادَةِ النُّبَلَاءِ، وَقَّعَ الرِّجَالُ وَرَقَةً تُثْبِتُ الرِّهَانَ، وَحَافَظَ فيلياس عَلَى هُدُوئِهِ بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ لِتَوِّهِ قَدْ رَاهَنَ بِنِصْفِ ثَرْوَتِهِ، ثُمَّ الْتَقَطَ نَفَسًا عَمِيقًا وَقَالَ: «أَيُّهَا السَّادَةُ، لِنَلْعَبْ جَوْلَةً أَخِيرَةً مِنَ الْوَرَقِ قَبْلَ رَحِيلِي.»

الفصل الثالث

فيلياس فوج يَصْدِمُ خَادِمَهُ الْجَدِيدَ

غَادَرَ فيلياس فوج نَادِيَ «ريفورم كلوب» فِي تَمَامِ السَّابِعَةِ وَخَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَقِيقَةً، وَعِنْدَمَا فَتَحَ بَابَ مَنْزِلِهِ، نَادَى عَلَى خَادِمِهِ الْجَدِيدِ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: «باسبارتو!» وَعِنْدَمَا لَمْ يَتَلَقَّ جَوَابًا، صَاحَ مَرَّةً أُخْرَى: «باسبارتو!»

صَاحَ فيلياس مُجَدَّدًا: «باسبارتو!» وَظَهَرَ باسبارتو عَلَى عَتَبَةِ بَابِ غُرْفَةِ النَّوْمِ، فَقَالَ فيلياس: «لَقَدْ نَادَيْتُكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.»

أَجَابَ الْخَادِمُ: «وَلَكِنَّ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ لَمْ يَحِنْ بَعْدُ، يَا سَيِّدِي.»

قَالَ فيلياس: «أَعْلَمُ، وَلَكِنَّنَا سَنُغَادِرُ إِلَى دوفر فِي خِلَالِ عَشْرِ دَقَائِقَ.»

كَسَا وَجْهَ باسبارتو ابْتِسَامَةٌ حَائِرَةٌ وَقَالَ: «هَلْ سَيُغَادِرُ سَيِّدِي فِي رِحْلَةٍ؟»

أَجَابَ فيلياس: «نَعَمْ، سَنَذْهَبُ فِي رِحْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ.» ثُمَّ تَوَقَّفَ لِوَهْلَةٍ وَاسْتَطْرَدَ: «وَعَلَيْنَا الْعَوْدَةُ فِي غُضُونِ ثَمَانِينَ يَوْمًا.» اتَّسَعَتْ عَيْنَا باسبارتو مِنْ هَوْلِ الْمُفَاجَأَةِ، ثُمَّ رَفَعَ حَاجِبَيْهِ وَأَمْسَكَ يَدَيْهِ فِي ذُهُولٍ.

ثُمَّ قَالَ مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ: «جَوْلَةٌ حَوْلَ الْعَالَمِ؟»

كَرَّرَ فيلياس: «فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا، وَلَيْسَ لَدَيْنَا دَقِيقَةٌ لِنُضَيِّعَهَا.»

قَالَ باسبارتو: «وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ بِوَقْتٍ كَافٍ لِحَزْمِ صُنْدُوقِ أَمْتِعَتِكَ يَا سَيِّدِي.»

– «لَنْ نَأْخُذَ صَنَادِيقَ الْأَمْتِعَةِ، فَقَطْ حَقَائِبَ السَّفَرِ الْقُمَاشِيَّةَ وَزَوْجَيْنِ مِنَ الْقُمْصَانِ وَثَلَاثَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الْجَوَارِبِ فِي كُلِّ حَقِيبَةٍ، سَنَشْتَرِي أَيَّ شَيْءٍ آخَرَ نَحْتَاجُهُ فِي الطَّرِيقِ.»

غَادَرَ باسبارتو الْغُرْفَةَ مَذْهُولًا. كَانَتِ الْحَقَائِبُ الْقُمَاشِيَّةُ صَغِيرَةً لِلْغَايَةِ، بِالْكَادِ تَكْفِي مَا يَحْتَاجُهُ الْمَرْءُ فِي رِحْلَةٍ تَسْتَغْرِقُ لَيْلَةً وَاحِدَةً. وَفَكَّرَ باسبارتو: «حَوْلَ الْعَالَمِ، وَفِي ثَمَانِينَ يَوْمًا! هَلْ هَذَا السَّيِّدُ مَجْنُونٌ؟»

بِحُلُولِ الثَّامِنَةِ، كَانَ باسبارتو قَدْ حَزَمَ الْأَمْتِعَةَ، ثُمَّ أَغْلَقَ بِحَذَرٍ بَابَ غُرْفَتِهِ وَنَزَلَ إِلَى الطَّابِقِ السُّفْلِيِّ حَيْثُ كَانَ فيلياس مُنْتَظِرًا. كَانَ فيلياس يَضَعُ تَحْتَ ذِرَاعَيْهِ دَلِيلَيْ سَفَرٍ، أَحَدُهُمَا لِخُطُوطِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ وَالْآخَرُ لِلسُّفُنِ، ثُمَّ وَضَعَ الْكِتَابَيْنِ وَمِحْفَظَتَهُ فِي الْحَقِيبَةِ الْقُمَاشِيَّةِ الَّتِي قَدَّمَهَا لَهُ باسبارتو.

سَأَلَ فيلياس: «أَلَمْ تَنْسَ شَيْئًا؟»

أَجَابَ باسبارتو: «وَلَا أَيَّ شَيْءٍ يَا سَيِّدِي.»

سَأَلَ فيلياس: «قُبَّعَتِي وَمِعْطَفِي؟»

أَعْطَاهُمَا باسبارتو لَهُ قَائِلًا: «هَا هُمَا يَا سَيِّدِي.» أَخَذَ فيلياس قُبَّعَتَهُ وَمِعْطَفَهُ وَأَعْطَى حَقِيبَتَهُ لِخَادِمِهِ قَائِلًا: «الْآنَ انْتَبِهْ لِحَقِيبَتِي جَيِّدًا؛ فَبِهَا عِشْرُونَ أَلْفَ جُنَيْهٍ!» صُدِمَ باسبارتو حَتَّى إِنَّهُ كَادَ يُوقِعُ الْحَقِيبَةَ.

خَرَجَ الِاثْنَانِ مِنَ الْمَنْزِلِ وَاسْتَقَلَّا سَيَّارَةَ أُجْرَةٍ كَانَتْ بِانْتِظَارِهِمَا. أَقَلَّتْهُمَا السَّيَّارَةُ مُبَاشَرَةً إِلَى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ، وَفَوْرَ دُخُولِهِمَا اشْتَرَى فيلياس التَّذَاكِرَ.

فِي تَمَامِ التَّاسِعَةِ إِلَّا عِشْرِينَ دَقِيقَةً، عَثَرَ فيلياس وباسبارتو عَلَى مَقْعَدَيْهِمَا فِي عَرَبَةِ الدَّرَجَةِ الْأُولَى، وَكَانَا قَدْ وَصَلَا إِلَى الْقِطَارِ وَلَا يَزَالُ أَمَامَهُمَا خَمْسُ دَقَائِقَ إِضَافِيَّةٌ. كَانَ باسبارتو يَتَشَبَّثُ بِشِدَّةٍ بِحَقِيبَةِ السَّفَرِ الَّتِي تَحْوِي أَمْوَالَ سَيِّدِهِ، وَكَانَ لَا يَزَالُ لَا يُصَدِّقُ مَا يَحْدُثُ. وَدَوَّى صَفِيرُ الْقِطَارِ مُعْلِنًا بَدْءَ رِحْلَتِهِمَا!

الفصل الرابع

التَّعَرُّفُ إِلَى الْمُحَقِّقِ فيكس

هَا قَدْ بَدَأَتِ الرِّحْلَةُ الْعَاصِفَةُ! بعد أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ فَقَطْ مِنَ السَّفَرِ كَانَ فيلياس وباسبارتو قَدْ غَادَرَا أُورُوبَّا، حَيْثُ سَافَرَا بِالْقِطَارِ إِلَى دوفر وَمِنْهَا أَبْحَرَا إِلَى بَارِيسَ، وَمِنْ بَارِيسَ اسْتَقَلَّا قِطَارًا إِلَى تورينو فِي إِيطَاليَا، وَحَمَلَهُمْا قِطَارٌ آخَرُ مِنْ إِيطَاليَا إِلَى برينديزي حَيْثُ صَعِدَا عَلَى مَتْنِ بَاخِرَةٍ تُدْعَى «منغوليا».

كَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ وُصُولُ الْبَاخِرَةِ «منغوليا» إِلَى مِينَاءِ السُّوَيْسِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ الْمُوَافِقَ التَّاسِعَ مِنْ أُكْتُوبَرَ فِي تَمَامِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ صَبَاحًا؛ إِذْ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ أَسْرَعِ الْبَوَاخِرِ الَّتِي تَمْلِكُهَا شَرِكَةُ «بنينسولار آند أورينتال».

وَبَيْنَمَا كَانَتِ الْبَاخِرَةُ تُبْحِرُ فِي اتِّجَاهِ السُّوَيْسِ، كَانَ هُنَاكَ رَجُلَانِ يَسِيرَانِ جِيئَةً وَذَهَابًا فِي الْقَنَاةِ، وَكَانَ مِنْهُمَا الدِّبْلُومَاسِيُّ الْبِرِيطَانِيُّ لِلْمِنْطَقَةِ، وَيُدْعَى ستيفنسون، وَالْآخَرُ كَانَ أَحَدَ الْمُحَقِّقِينَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ بَنْكُ إِنْجِلْتِرَا حَوْلَ الْعَالَمِ لِلْبَحْثِ عَنِ اللِّصِّ السَّارِقِ، وَكَانَ يُدْعَى الْمُفَتِّشَ فيكس.

كَانَ السَّيِّدُ فيكس قَصِيرَ الْقَامَةِ، ذَا عَيْنَيْنِ ضَيِّقَتَيْنِ، وَحَوَاجِبَ كَثِيفَةٍ تَنْتَفِضُ بِاسْتِمْرَارٍ بِشَكْلٍ لَا إِرَادِيٍّ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ مَظْهَرِهِ الَّذِي يَجْعَلُهُ يُشْبِهُ الْفَأْرَ، فَقَدْ كَانَ مُحَقِّقًا ذَكِيًّا، وَكَانَتْ مُهِمَّتُهُ أَنْ يُرَاقِبَ كُلَّ رَاكِبٍ يَأْتِي إِلَى السُّوَيْسِ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُبْلِغَ عَنْ أَيِّ شَخْصٍ قَدْ يَشْتَبِهُ أَنَّهُ اللِّصُّ.

وَكَانَ فيكس يَقُولُ لِلْمَرَّةِ الْعِشْرِينَ: «حَسَنًا يَا ستيفنسون، أَتَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الْبَاخِرَةَ تَصِلُ «دَائِمًا» فِي مَوْعِدِهَا؟»

تَنَهَّدَ السَّيِّدُ ستيفنسون: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ فيكس، هَذَا صَحِيحٌ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ تَصِلُ الْبَاخِرَةُ «منغوليا» قَبْلَ مَوْعِدِهَا.»

سَأَلَ الْمُحَقِّقُ: «وَهَلْ تَأْتِي مُبَاشَرَةً مِنْ برينديزي فِي إِيطَالِيَا؟»

قَالَ ستيفنسون: «مَرَّةً أُخْرَى، هَذَا صَحِيحٌ؛ فَالسَّفِينَةُ تَجْمَعُ الْبَرِيدَ ثُمَّ تُغَادِرُ فِي الْخَامِسَةِ مِنْ مَسَاءِ يَوْمِ السَّبْتِ، وَالْمَوَاعِيدُ لَا تَتَغَيَّرُ أَبَدًا. «منغوليا» سَتَصِلُ هُنَا فِي تَمَامِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ، تَحَلَّ بِالصَّبْرِ يَا سَيِّدُ فيكس. وَعَلَى أَيَّةِ حَالٍ، فَأَنَا لَا أَفْهَمُ كَيْفَ سَتَتَمَكَّنُ مِنَ الْعُثُورِ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي تَبْحَثُ عَنْهُ بِالْمُوَاصَفَاتِ الَّتِي لَدَيْكَ عَنْهُ، فَمِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ أَيَّ شَخْصٍ؛ إِذْ إِنَّ هُنَاكَ الْعَدِيدَ مِنَ النُّبَلَاءِ الَّذِينَ يَأْتُونَ إِلَى هُنَا مِنْ إِيطَالِيَا.»

أَجَابَ فيكس سَرِيعًا: «نَعَمْ! وَلَكِنْ يَا سَيِّدِي، الْمَرْءُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَشْعُرَ عِنْدَمَا يَكُونُ بِصُحْبَةِ أَشْرَارٍ، فَلَدَيَّ قُوَّةُ إِحْسَاسٍ بِهِمْ، حَاسَّةٌ سَادِسَةٌ تَمْزِجُ السَّمْعَ وَالنَّظَرَ وَالشَّمَّ! وَهَكَذَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُمَيِّزَهُ.»

سَأَلَ ستيفنسون: «حَتَّى إِذَا كَانَ رَجُلًا مِنَ النُّبَلَاءِ؟»

قَالَ فيكس: «سَوْفَ أَشَمُّ رَائِحَةَ هَذَا الرَّجُلِ حَتَّى وَلَوْ كَانَ مِنَ النُّبَلَاءِ!»

كَانَتِ السَّاعَةُ تُشِيرُ إِلَى الْعَاشِرَةِ وَالنِّصْفِ عِنْدَمَا بَدَأَ الرَّصِيفُ فِي الِازْدِحَامِ، حَيْثُ مَرَّ الْبَحَّارَةُ وَالتُّجَّارُ وَبَنَّاءُو السُّفُنِ وَالْحَمَّالُونَ، وَكَانَ الْمُحَقِّقُ فيكس يَتَفَحَّصُ بِحَذَرٍ كُلَّ شَخْصٍ يَمُرُّ بِجَانِبِهِ، ثُمَّ قَالَ: «لَمْ تَأْتِ «منغوليا» بَعْدُ!»

كَرَّرَ ستيفنسون: «سَتَصِلُ السَّفِينَةُ فِي مَوْعِدِهَا الْمُحَدَّدِ.»

سَأَلَ فيكس: «كَمْ مِنَ الْوَقْتِ سَتَظَلُّ فِي السُّوَيْسِ؟»

أَجَابَ ستيفنسون: «لِأَرْبَعِ سَاعَاتٍ حَتَّى تَتَزَوَّدَ بِحُمُولَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الْفَحْمِ.»

– «وَحِينَهَا تُبْحِرُ الْبَاخِرَةُ مُبَاشَرَةً إِلَى بومباي؟»

فَقَالَ ستيفنسون: «إِنَّهَا تَتَوَقَّفُ فِي عدن لِلتَّزَوُّدِ بِالْفَحْمِ، ثُمَّ تَتَّجِهُ بَعْدَ ذَلِكَ مُبَاشَرَةً إِلَى بومباي.»

قَالَ فيكس: «جَيِّدٌ، فَإِذَا كَانَ اللِّصُّ عَلَى مَتْنِهَا، فَغَالِبًا مَا سَيَنْزِلُ هُنَا لِيَتَّجِهَ إِلَى آسْيَا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ إِلْقَاءُ الْقَبْضِ عَلَيْهِ، بَدَلًا مِنَ الْهِنْدِ الَّتِي تُعَدُّ جُزْءًا مِنْ إِمْبَرَاطُورِيَّةِ الْمَلِكَةِ.»

فَأَجَابَهُ ستيفنسون: «هَذَا إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ مَكَثَ فِي إِنْجِلْتِرَا لِلِاخْتِبَاءِ.»

فَقَالَ فيكس: «هَذَا غَيْرُ مُرَجَّحٍ! غَيْرُ مُرَجَّحٍ!»

عَادَ ستيفنسون إِلَى مَكْتَبِهِ بَيْنَمَا ظَلَّ فيكس وَحْدَهُ عَلَى الرَّصِيفِ، وَظَلَّ يَجُوبُ الرَّصِيفَ ذَهَابًا وَإِيَابًا مُفَكِّرًا، وَسُرْعَانَ مَا سَمِعَ دَوِيَّ عَدَدٍ مِنَ الصَّافِرَاتِ الْحَادَّةِ مُعْلِنَةً وُصُولَ الْبَاخِرَةِ «منغوليا»! أَسْرَعَ الْحَمَّالُونَ إِلَى الرَّصِيفِ وَخَرَجَ عَدَدٌ مِنَ الْقَوَارِبِ لِلِقَاءِ الْبَاخِرَةِ. أَلْقَتْ «منغوليا» مَرْسَاهَا فِي السُّوَيْسِ فِي تَمَامِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ كَمَا قَالَ ستيفنسون.

تَرَاجَعَ فيكس قَلِيلًا وَرَاقَبَ الْجَمِيعَ، ثُمَّ جَاءَهُ أَحَدُ الرُّكَّابِ بَعْدَ أَنْ شَقَّ طَرِيقَهُ فِي الزِّحَامِ إِلَيْهِ ... إِنَّهُ باسبارتو.

– «عُذْرًا يَا سَيِّدِي، أَيْنَ أَجِدُ مَكْتَبَ الْجَوَازَاتِ الْبِرِيطَانِيَّ؟» وَهُوَ يَمُدُّ يَدَهُ بِجَوَازِ سَفَرٍ يَحْتَاجُ لِلْخَتْمِ.

أَخَذَ الْمُحَقِّقُ جَوَازَ السَّفَرِ وَسَأَلَ: «أَهُوَ لَكَ؟»

قَالَ باسبارتو: «لَا يَا سَيِّدِي، إِنَّهُ لِسَيِّدِي، رَبِّ عَمَلِي.»

سَأَلَهُ فيكس: «وَمَنْ سَيِّدُكَ؟»

أَجَابَ باسبارتو: «السَّيِّدُ فيلياس فوج، وَهُوَ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ.»

قَالَ فيكس: «حَسَنًا، عَلَيْهِ الذَّهَابُ بِنَفْسِهِ إِلَى الدِّبْلُومَاسِيِّ الْبِرِيطَانِيِّ لِخَتْمِ جَوَازِ سَفَرِهِ. إِنَّهُ هُنَاكَ، ذَلِكَ الْمَكْتَبُ عِنْدَ الزَّاوِيَةِ.»

– «شُكْرًا لَكَ يَا سَيِّدِي، إِنَّهُ لَنْ يَكُونَ مَسْرُورًا بِهَذَا أَبَدًا!»

شَقَّ باسبارتو طَرِيقَهُ فِي الزِّحَامِ عَائِدًا لِيُبْلِغَ فيلياس أَنَّ عَلَيْهِ الذَّهَابَ بِنَفْسِهِ إِلَى الْمَكْتَبِ، كَمَا شَقَّ فيكس كَذَلِكَ طَرِيقَهُ إِلَى الْمَكْتَبِ بِالزَّاوِيَةِ؛ فَقَدْ كَانَ يَشْعُرُ بِالْفُضُولِ تِجَاهَ الرَّجُلِ الَّذِي أَرْسَلَ خَادِمَهُ لِيَخْتِمَ جَوَازَ سَفَرِهِ.

وَفَكَّرَ فيكس: «لَا بُدَّ وَأَنَّهُ هُوَ اللِّصُّ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَرَاهُ أَحَدٌ!»

«لَقَدْ وَجَدْتُهُ!» هَكَذَا صَاحَ فيكس فَوْرَ دُخُولِهِ إِلَى مَكْتَبِ الدِّبْلُومَاسِيِّ، وَاسْتَطْرَدَ: «لَقَدْ صَدَقَتْ ظُنُونِي، إِنَّهُ عَلَى مَتْنِ «منغوليا»، وَسَيَأْتِي إِلَى هُنَا لِخَتْمِ جَوَازِ سَفَرِهِ، وَقَدْ قَابَلْتُ لِلتَّوِّ خَادِمَهُ الَّذِي قَالَ إِنَّ رَئِيسَهُ يَرْفُضُ النُّزُولَ مِنْ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ، وَقَدْ أَخْبَرْتُ الْخَادِمَ أَنَّ سَيِّدَهُ يَجِبُ أَنْ يَحْضُرَ بِنَفْسِهِ! إِنَّهُ فِي قَبْضَتِنَا الْآنَ!»

قَالَ ستيفنسون: «أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ لَا يَأْتِي.»

قَالَ لَهُ فيكس: «إِذَا جَاءَ، فَعَلَيْكَ أَلَّا تَخْتِمَ جَوَازَ سَفَرِهِ.»

قَالَ ستيفنسون: «وَلَكِنْ لَيْسَ لَدَيَّ خِيَارٌ إِذَا كَانَ جَوَازُ سَفَرِهِ سَلِيمًا.»

قَالَ فيكس: «أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ هَذَا الرَّجُلَ يَمْكُثُ هُنَا حَتَّى أَحْصُلَ عَلَى أَمْرٍ بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ.»

– «وَلَكِنْ لَا أَسْتَطِيعُ ...» أَوْقَفَتْ طَرَقَاتٌ عَلَى بَابِ الْمَكْتَبِ كَلَامَ الدِّبْلُومَاسِيِّ فِي مُنْتَصَفِهِ، ثُمَّ دَخَلَ باسبارتو وفيلياس الْغُرْفَةَ، وَوَقَفَ فيكس فِي الزَّاوِيَةِ يُرَاقِبُ فيلياس وَهُوَ يُقَدِّمُ جَوَازَ سَفَرِهِ.

وَقَالَ فيلياس: «سَيِّدِي الْفَاضِلَ، هَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَخْتِمَ جَوَازَ سَفَرِي؟»

أَخَذَهُ ستيفنسون مِنْهُ وَتَفَحَّصَهُ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّكَ تُدْرِكُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ خَتْمُ جَوَازِ سَفَرِكَ؟» وَكَانَ عَلَى وَشْكِ أَنْ يُعِيدَ جَوَازَ السَّفَرِ إِلَى فيلياس.

– «أَعْلَمُ، وَلَكِنَّنِي أُرِيدُ أَنْ أُثْبِتَ أَنَّنِي كُنْتُ هُنَا.»

خَتَمَ ستيفنسون جَوَازَ السَّفَرِ وَأَرَّخَهُ، وَدَفَعَ فيلياس الرُّسُومَ الْمُقَرَّرَةَ ثُمَّ انْحَنَى انْحِنَاءَةً بَسِيطَةً فِي احْتِرَامٍ ثُمَّ انْصَرَفَ.

قَالَ فيكس: «حَسَنًا؟»

قَالَ ستيفنسون: «إِنَّهُ يَبْدُو كَرَجُلٍ شَرِيفٍ، وَيَتَصَرَّفُ كَهَذَا أَيْضًا.»

سَأَلَ فيكس: «وَلَكِنْ أَلَا تَعْتَقِدُ أَنَّهُ يُشْبِهُ اللِّصَّ بِالضَّبْطِ؟»

قَالَ ستيفنسون: «أَعْتَقِدُ هَذَا، وَلَكِنَّ هَذَا الْوَصْفَ عَامٌّ لِلْغَايَةِ يَا فيكس.»

قَالَ فيكس: «إِنَّهُ هُوَ! أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ!»

تَتَبَّعَ فيكس عَوْدَةَ فيلياس وباسبارتو مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الرَّصِيفِ، وَقَدْ عَادَ فيلياس إِلَى سَطْحِ «منغوليا»؛ إِذْ كَانَ يَرْغَبُ فِي تَدْوِينِ بَعْضِ الْمُلَاحَظَاتِ عَنْ سَيْرِ الرِّحْلَةِ، بَيْنَمَا ظَلَّ باسبارتو عَلَى الرَّصِيفِ لِلتَّأَمُّلِ.

فَذَهَبَ إِلَيْهِ فيكس وَقَالَ: «هَلْ تَتَأَمَّلُ الْمَكَانَ؟»

أَجَابَ باسبارتو: «إِنَّنَا نُسَافِرُ فِي عَجَلَةٍ وَأَرْغَبُ فِي رُؤْيَةِ مَا يُمْكِنُنِي. إِذَنْ، هَذِهِ هِيَ مِصْرُ؟»

– «نَعَمْ، هَذِهِ هِيَ مِصْرُ.»

– «تَقَعُ فِي أَفْرِيقِيَا؟»

أَجَابَهُ فيكس: «نَعَمْ.»

تَعَجَّبَ باسبارتو وَقَالَ: «أَفْرِيقِيَا! إِنَّنِي لَمْ أُسَافِرْ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ أَبْعَدَ مِنْ بَارِيسَ، إِنَّهَا وَطَنِي وَلَكِنَّنَا مَرَرْنَا بِهَا بِسُرْعَةٍ لِدَرَجَةِ أَنَّنِي لَمْ أُشَاهِدْ إِلَّا الرِّحْلَةَ بَيْنَ الْمَحَطَّةِ الشَّمَالِيَّةِ وَمَحَطَّةِ ليون.»

سَأَلَ فيكس: «إِنَّكَ فِي عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِكَ إِذَن؟» وَكَانَ يُحَاوِلُ أَلَّا يَطْرَحَ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَسْئِلَةِ.

أَجَابَ باسبارتو: «كَلَّا، إِنَّهُ سَيِّدِي وَلَيْسَ أَنَا، فَهُوَ يَقُومُ بِجَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ.»

قَالَ فيكس: «جَوْلَةٌ حَوْلَ الْعَالَمِ!»

قَالَ باسبارتو: «نَعَمْ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا، وَهُوَ يَقُولُ إِنَّهُ رِهَانٌ، وَلَكِنْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَنَا لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ ذَلِكَ، لَا بُدَّ وَأَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا آخَرَ.»

أَضَافَ فيكس: «بِالطَّبْعِ!»

– «سَيِّدِي رَجُلٌ ثَرِيٌّ، وَهُوَ يَحْمِلُ مَبْلَغًا كَبِيرًا مِنَ الْأَوْرَاقِ الْبَنْكِيَّةِ الْجَدِيدَةِ، وَسَيَفْعَلُ أَيَّ شَيْءٍ لِيَرْبَحَ الرِّهَانَ.»

قَالَ فيكس مَرَّةً أُخْرَى: «بِالطَّبْعِ! هَلْ تَعْرِفُ السَّيِّدَ فوج مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ؟»

قَالَ باسبارتو: «لَا، لَقَدْ بَدَأْتُ الْعَمَلَ لَدَيْهِ فِي نَفْسِ الْيَوْمِ الَّذِي غَادَرْنَا فِيهِ. عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ الْآنَ؛ فَيَجِبُ أَنْ أَشْتَرِيَ بَعْضَ الْقُمْصَانِ الْجَدِيدَةِ لِسَيِّدِي قَبْلَ عَوْدَتِي عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ؛ فَنَحْنُ فِي طَرِيقِنَا إِلَى بومباي بَعْدَ ذَلِكَ!»

كَانَ تَدَفُّقُ الْحَقَائِقِ أَغْزَرَ مِنْ أَنْ يَسْتَوْعِبَهُ فيكس؛ فَالسَّفَرُ السَّرِيعُ مِنْ لَنْدَنَ وَالْمَبْلَغُ الْمَالِيُّ الضَّخْمُ الَّذِي يَحْمِلُه فيلياس فوج، وَكَذَلِكَ حَقِيقَةُ أَنَّ فيلياس يُرِيدُ السَّفَرَ بِسُرْعَةٍ إِلَى دُوَلٍ بَعِيدَةٍ، نَاهِيكَ عَنْ أَنَّهُ مُطَابِقٌ لِمُوَاصَفَاتِ اللِّصِّ؛ إِذْ إِنَّهُ مِنَ النُّبَلَاءِ. هُرِعَ فيكس إِلَى مَكْتَبِ الدِّبْلُومَاسِيِّ لِيُرْسِلَ بَرْقِيَّةً إِلَى لَنْدَنَ.

أَلْقَى فيكس نَظْرَةً مُتَأَنِّيَةً عَلَى التِّلِغْرَافِ قَبْلَ أَنْ يُعْطِيَهُ إِلَى الْمُوَظَّفِ، وَجَاءَ فِيهِ:

مِنَ السُّوَيْسِ إِلَى لَنْدَنَ
إِلَى: السَّيِّدِ روان، قَائِدِ الشُّرْطَةِ، سكوتلاند يارد
مِنَ: الْمُحَقِّقِ فيكس

لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَى لِصِّ الْبَنْكِ. إِنَّهُ فيلياس فوج.
أَرْسِلْ أَمْرًا بِالْقَبْضِ عَلَيْهِ إِلَى بومباي؛ فَسَوْفَ أُقَابِلُهُ هُنَاكَ.

الفصل الخامس

فيلياس فوج يُسَافِرُ عَبْرَ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ وَالْمُحِيطِ الْهِنْدِيِّ

غَادَرَتِ الْبَاخِرَةُ «منغوليا» السُّوَيْسَ فِي مَوْعِدِهَا — فِي تَمَامِ الثَّالِثَةِ عَصْرًا حَسْبَ التَّوْقِيتِ الْمَحَلِّيِّ — وَبَدَأَتْ رِحْلَتَهَا إِلَى عَدَن. لَمْ يَكْتَرِثْ فيلياس فوج كَثِيرًا بِمُشَاهَدَةِ الْمَنَاظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَلِذَلِكَ قَضَى قَلِيلًا مِنَ الْوَقْتِ عَلَى سَطْحِ الْبَاخِرَةِ، وَعِوَضًا عَنْ ذَلِكَ أَمْضَى مُعْظَمَ وَقْتِهِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ فِي نَادِي «ريفورم كلوب»: يَتَنَاوَلُ وَجَبَاتِهِ وَيَلْعَبُ الْوَرَقَ.

عَلَى النَّقِيضِ مِنْ رَئِيسِهِ، كَانَ باسبارتو يَسْتَمْتِعُ حَقًّا بِالْمَنَاظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَكَانَ يَتَحَيَّنُ كُلَّ فُرْصَةٍ لِلصُّعُودِ عَلَى ظَهْرِ الْبَاخِرَةِ لِمُشَاهَدَةِ مَا يَمُرُّونَ بِهِ.

وَفِي يَوْمٍ مَا، بَيْنَمَا كَانَ يَقُومُ بِمَهَامِّهِ الْيَوْمِيَّةِ الْعَادِيَّةِ، قَابَلَ الْمُحَقِّقَ فيكس.

قَالَ باسبارتو: «مَرْحَبًا، إِنَّكَ النَّبِيلُ الطَّيِّبُ الَّذِي قَابَلْتُهُ فِي السُّوَيْسِ.»

قَالَ فيكس: «وَأَنْتَ خَادِمُ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْإِنْجِلِيزِيِّ غَرِيبِ الْأَطْوَارِ!»

– «هَذَا صَحِيحٌ يَا سَيِّدُ ...»

– «فيكس.»

كَرَّرَ باسبارتو: «فيكس، أَنَا سَعِيدٌ لِرُؤْيَتِكَ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ. إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ؟»

– «إِلَى بومباي.»

سَأَلَ باسبارتو: «حَقًّا، إِنَّهَا وِجْهَتُنَا نَحْنُ أَيْضًا! هَلْ زُرْتَ الْهِنْدَ مِنْ قَبْلُ؟»

أَجَابَهُ فيكس أَنَّهُ بِالطَّبْعِ قَدْ زَارَ الْهِنْدَ مِنْ قَبْلُ، وَأَنَّهُ — لِيُخْفِيَ هُوِيَّتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ كَمُحَقِّقٍ فِي لَنْدَنَ — وَكِيلٌ لَدَى شَرِكَةِ بنينسولار آند أورينتال، وَهِيَ الشَّرِكَةُ الْمَالِكَةُ

لِلسَّفِينَةِ «منغوليا». وَسُرْعَانَ مَا أَصْبَحَ الرَّجُلَانِ صَدِيقَيْنِ وَبَدَآ يَتَمَشَّيَانِ مَعًا يَوْمِيًّا عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، وَبَيْنَمَا كَانَا يَسِيرَانِ معًا كَانَا يَتَحَدَّثَانِ عَمَّا قَدْ تَكُونُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ فِي الْهِنْدِ.

حَاوَلَ فيكس أَنْ يَسْتَدْرِجَ باسبارتو لِيَتَحَدَّثَ أَكْثَرَ عَنْ فيلياس فوج وَجَوْلَتِهِ الْغَرِيبَةِ حَوْلَ الْعَالَمِ، وَكَانَ باسبارتو يُجِيبُ دَائِمًا بِصَرَاحَةٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ الْكَثِيرَ، وَلَمْ تَكُنِ الْمَعْلُومَاتُ الْقَلِيلَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يُشَارِكَهُ إِيَّاهَا ذَاتَ أَهَمِّيَّةٍ لِلْمُحَقِّقِ فيكس.

وَبَيْنَمَا كَانَتْ «منغوليا» تَشُقُّ طَرِيقَهَا فِي عُرْضِ الْبَحْرِ، مَرُّوا بِمَدِينَةِ المخاء، وَعَبَرُوا مَضِيقَ بَابِ الْمَنْدَبِ، ثُمَّ تَوَقَّفُوا فِي عدن لِلتَّزَوُّدِ بِالْفَحْمِ. وَكَانُوا لَا يَزَالُونَ عَلَى بُعْدِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ مِنْ بومباي.

ذَهَبَ فوج مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الرَّصِيفِ لِخَتْمِ جَوَازِ سَفَرِهِ وَعَادَ إِلَى السَّفِينَةِ، بَيْنَمَا كَانَ باسبارتو يَتَجَوَّلُ لِيُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى الْمَكَانِ. وَفِي تَمَامِ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ عَادَتِ الْبَاخِرَةُ لِتَشُقَّ طَرِيقَهَا فِي عُرْضِ الْمُحِيطِ، وَكَانَتِ الرِّحْلَةُ مِنْ عدن إِلَى بومباي سَتَسْتَغْرِقُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ فَقَطْ. وَكَانَ الْمُحِيطُ الْهِنْدِيُّ هَادِئًا، وَحَقَّقَتْ «منغوليا» وَقْتًا قِيَاسِيًّا؛ إِذْ وَصَلَتْ قَبْلَ مَوْعِدِهَا بِيَوْمَيْنِ.

عِنْدَمَا رَسَتِ السَّفِينَةُ فِي الْمِينَاءِ، دَوَّنَ فيلياس بِهُدُوءٍ فِي دَفْتَرِهِ الْيَوْمَيْنِ اللَّذَيْنِ رَبِحَهُمَا مِنْ وُصُولِ السَّفِينَةِ مُبَكِّرًا، كَمَا دَوَّنَ كَذَلِكَ الْوَقْتَ وَعَدَدَ الْأَمْيَالِ الَّتِي قَطَعُوهَا.

بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ فيلياس شُرَكَاءَهُ فِي اللَّعِبِ عَلَى مَتْنِ «منغوليا»، كَلَّفَ باسبارتو بِبَعْضِ الْمَهَامِّ، وَشَرَعَ هُوَ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَكْتَبِ الْجَوَازَاتِ. وَكَانَ مَعَهُمَا بِالْفِعْلِ تَذَاكِرُ لِلسِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ الَّتِي تَقْطَعُ الْهِنْدَ مِنْ بومباي إِلَى كلكتا، وَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنْ يَبْدَأَ الْقِطَارُ رِحْلَتَهُ فِي تَمَامِ السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ ذَلِكَ الْمَسَاءِ، وَأَكَّدَ فيلياس عَلَى باسبارتو أَنْ يَعُودَ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ.

اتَّجَهَ فيلياس إِلَى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ لِيَتَنَاوَلَ غَدَاءَهُ حَامِلًا جَوَازَ سَفَرِهِ الْمَخْتُومَ فِي يَدِهِ، أَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعَجَائِبِ بومباي، فَلَمْ يَكُنْ يَكْتَرِثُ حَقًّا لِرُؤْيَتِهَا.

وَبَيْنَمَا كَانَ فيلياس يُحَاوِلُ تَنَاوُلَ وَجْبَةٍ سَيِّئَةٍ لِلْغَايَةِ مِنْ لَحْمٍ غَرِيبٍ، اتَّجَهَ فيكس لِيَبْحَثَ عَنْ قِسْمِ شُرْطَةِ بومباي، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مُحَقِّقٌ مِنْ لَنْدَنَ يَتَعَقَّبُ لِصًّا، وَأَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إِذَا مَا كَانَتْ مُذَكِّرَةُ إِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَى ذَلِكَ اللِّصِّ قَدْ وَصَلَتْ أَمْ لَا. لَكِنَّهَا لَمْ تَصِلْ، فَحَاوَلَ فيكس إِقْنَاعَ الشُّرْطَةِ بِكِتَابَةِ مُذَكِّرَةٍ أُخْرَى، وَلَكِنَّهُمْ رَفَضُوا وَقَالُوا إِنَّ ذَلِكَ الْأَمْرَ

شَأْنُ شُرْطَةِ لَنْدَنَ؛ فَلَمْ يُجَادِلْهُمْ فيكس؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فيلياس فوج لَنْ يَمْكُثَ فِي بومباي لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، وَكَانَ عَلَيْهِ إِيجَادُ وَسِيلَةٍ أُخْرَى لِإِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، كَانَ باسبارتو قَدِ انْطَلَقَ لِتَنْفِيذِ مَهَامِّهِ، وَكَانَ قَدْ بَدَأَ يُصَدِّقُ أَنَّهُمَا بِالْفِعْلِ فِي سِبَاقٍ حَوْلَ الْعَالَمِ. وَبَعْدَمَا قَامَ بِشِرَاءِ الْقُمْصَانِ وَالْجَوَارِبِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي طَلَبَهَا فيلياس، أَمْضَى بَعْضَ الْوَقْتِ فِي اسْتِكْشَافِ شَوَارِعِ بومباي وَمَيَادِينِهَا الْمُزْدَحِمَةِ، وَكَانَ النَّاسُ يَرْتَدُونَ مَلَابِسَ مُخْتَلِفَةَ التَّصْمِيمِ! فَكَانَتْ هُنَاكَ الْقُبَّعَاتُ الْمُدَبَّبَةُ وَالْعِمَامَاتُ وَالْقَلَنْسُوَاتُ الْمُرَبَّعَةُ وَعَبَاءَاتٌ طَوِيلَةٌ؛ فَكَانَ كُلُّ شَخْصٍ يَبْدُو مُخْتَلِفًا!

وَفِي خِلَالِ سَيْرِهِ، وَجَدَ باسبارتو نَفْسَهُ فِي وَسْطِ مَوْكِبٍ وَفِيهِ فَتَيَاتٌ يَرْتَدِينَ مَلَابِسَ جَمِيلَةً وَيَرْقُصْنَ بَيْنَمَا يَضْرِبْنَ دُفُوفًا صَاخِبَةً. وَعِنْدَمَا مَرَّ الْمَوْكِبُ وَجَدَ باسبارتو نَفْسَهُ قَدِ انْجَذَبَ إِلَى مَعْبَدٍ، وَمَا لَمْ يَكُنْ يُدْرِكُهُ هُوَ أَنَّ الْأَجَانِبَ مَمْنُوعُونَ مِنْ دُخُولِ هَذِهِ الْمَعَابِدِ، وَكَانَ دُخُولُهُ غَيْرَ قَانُونِيٍّ!

مَا إِنْ وَطِئَتْ قَدَمَا باسبارتو أَرْضَ الْمَعْبَدِ حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ مُلْقًى عَلَى الْأَرْضِ فَجْأَةً! فَقَدِ انْقَضَّ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ رُهْبَانٍ غَاضِبُونَ وَأَخَذُوا يَضْرِبُونَهُ وَيَصْرُخُونَ بِلُغَةٍ غَرِيبَةٍ، ثُمَّ خَلَعُوا عَنْهُ حِذَاءَهُ! هَبَّ باسبارتو وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ وَدَفَعَ اثْنَيْنِ مِنْ مُهَاجِمِيهِ بَعِيدًا وَانْطَلَقَ خَارِجًا مِنَ الْبَابِ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ.

عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ، كَانَتِ السَّاعَةُ الثَّامِنَةَ إِلَّا خَمْسَ دَقَائِقَ، وَكَانَ قَدْ فَقَدَ حُزْمَةَ الْجَوَارِبِ وَالْقُمْصَانِ الْجَدِيدَةِ فِي الْمُشَاجَرَةِ، وَحَاوَلَ باسبارتو أَنْ يَشْرَحَ مَا حَدَثَ، وَلَكِنَّ فيلياس كَانَ مُسْتَاءً مِمَّا حَدَثَ.

وَفَوْرَ صُعُودِهِمَا إِلَى الْقِطَارِ قَالَ فيلياس: «آمُلُ أَلَّا يَتَكَرَّرَ هَذَا مُجَدَّدًا.» خَفَضَ باسبارتو رَأْسَهُ فِي خَجَلٍ وَوَعَدَ بِأَنَّ مَا حَدَثَ لَنْ يَتَكَرَّرَ ثَانِيَةً؛ إِذْ كَانَ آخِرُ مَا يُرِيدُهُ هُوَ إِثَارَةُ غَضَبِ سَيِّدِهِ.

كَانَ فيكس خَلْفَهُمَا بِخُطْوَتَيْنِ، وَكَانَ عَلَى وَشْكِ صُعُودِ الْقِطَارِ عِنْدَمَا غَيَّرَ رَأْيَهُ فَجْأَةً؛ إِذْ إِنَّهُ قَدْ سَمِعَ كُلَّ كَلِمَةٍ وَعَلِمَ بِمَا حَدَثَ بِالضَّبْطِ لباسبارتو، فَهَمَسَ لِنَفْسِهِ قَائِلًا: «جَرِيمَةٌ ارْتُكِبَتْ عَلَى الْأَرَاضِي الْهِنْدِيَّةِ!» وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي الْخَطَأِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ باسبارتو بِدُخُولِهِ الْمَعْبَدَ، وَقَالَ: «هَكَذَا سَأَقْبِضُ عَلَيْهِمَا!»

أَرْسَلَ فيكس بَرْقِيَّةً إِلَى كلكتا يُخْبِرُ الشُّرْطَةَ هُنَاكَ بِمَا حَدَثَ فِي الْمَعْبَدِ، وَيُخْبِرُهُمْ بِوُصُولِ السَّيِّدِ فوج وباسبارتو إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ حَجَزَ لِنَفْسِهِ تَذْكِرَةً عَلَى الْقِطَارِ التَّالِي وَهُوَ حَرِيصٌ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى كلكتا قَبْلَهُمَا.

الفصل السادس

فيلياس فوج عَلَى ظَهْرِ فِيلٍ

انْطَلَقَتْ صَافِرَةُ الْقِطَارِ مُعْلِنَةً مُغَادَرَةَ الْمَحَطَّةِ فِي الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ، وَكَانَ مَعَ باسبارتو وفيلياس فِي الْكَابِينَةِ الَّتِي يَجْلِسَانِ فِيهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ يُدْعَى السِّيرْ فرانسيس كرومرتي، وَهُوَ رَجُلٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ ذُو بَشَرَةٍ بَيْضَاءَ وَيَبْلُغُ الْخَمْسِينَ مِنَ الْعُمْرِ. وَكَانَ السِّيرْ فرانسيس فِي طَرِيقِهِ لِلانْضِمَامِ إِلَى كَتِيبَتِهِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الْمُتَمَرْكِزَةِ فِي مَدِينَةِ بيناريس، وَهِيَ مَدِينَةٌ كُبْرَى أُخْرَى فِي الْهِنْدِ.

تَقَابَلَ فيلياس وَالسِّيرْ فرانسيس عَلَى مَتْنِ «منغوليا» حَيْثُ لَعِبَا الْوَرَقَ مَعًا، وَكَانَ السِّيرْ فرانسيس — وَهُوَ جِنِرَالٌ فِي الْجَيْشِ الْبِرِيطَانِي — يَرَى أَنَّ فيلياس مَجْنُونٌ؛ لِأَنَّهُ يُحَاوِلُ السَّفَرَ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْقَصِيرِ، بَلْ وَكَانَ يَرَى أَنَّ فيلياس شَخْصٌ غَرِيبٌ حَقًّا.

وَبَعْدَ مُرُورِ سَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنْ رِحْلَةِ الْقِطَارِ، قَالَ السِّيرْ فرانسيس: «لَوْ كَانَ هَذَا قَبْلَ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ مَضَتْ يَا فيلياس، لَكُنْتَ عَلِقْتَ هُنَا وَخَسِرْتَ رِهَانَكَ.»

سَأَلَ فيلياس: «كَيْفَ ذَلِكَ؟»

– «كَانَ الْقِطَارُ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ قَاعِدَةِ تِلْكَ الْجِبَالِ، وَكَانَ عَلَى الرُّكَّابِ امْتِطَاءُ الْمُهُورِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ.»

قَالَ فيلياس: «آه، حَسَنًا، كُنْتُ سَأَحْرِصُ عَلَى التَّخْطِيطِ لِذَلِكَ، وَكَانَتِ الْأُمُورُ سَتَسِيرُ عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ.»

وَبَيْنَمَا كَانَ الرَّجُلَانِ يَتَجَاذَبَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، نَامَ باسبارتو بِهُدُوءٍ وَهُوَ يَتَدَثَّرُ بِبَطَّانِيَّةٍ. وَأَخِيرًا تَوَقَّفَ الرَّجُلَانِ عَنِ الْكَلَامِ وَبَقِيَا صَامِتَيْنِ، وَشَقَّ الْقِطَارُ طَرِيقَهُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، وَبِحُلُولِ النَّهَارِ كَانَ قَدْ قَطَعَ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الْجِبَالِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ خَلْفَهُمَا.

كَانَتْ مَحَطَّتُهُمُ الْأُولَى بَعْدَ مُغَادَرَةِ بومباي هِيَ برهامبور، وَعِنْدَمَا تَوَقَّفَ الْقِطَارُ لِلتَّزَوُّدِ بِالْمُؤَنِ وَالْفَحْمِ، اشْتَرَى باسبارتو لِنَفْسِهِ حِذَاءً جَدِيدًا؛ إِذْ إِنَّهُ قَدْ فَقَدَ حِذَاءَهُ فِي الشِّجَارِ فِي الْمَعْبَدِ. وَكَانَ حِذَاؤُهُ الْجَدِيدُ عِبَارَةً عَنْ خُفٍّ هِنْدِيٍّ مُزَيَّنٍ بِلَآلِئَ غَيْرِ أَصْلِيَّةٍ، وَلَمْ يَمْتَلِكْ باسبارتو قَطُّ شَيْئًا بِهَذَا الْجَمَالِ.

وَعِنْدَمَا بَدَأَ الْقِطَارُ يَسْتَأْنِفُ رِحْلَتَهُ، جَلَسَ باسبارتو مَرَّةً أُخْرَى يَتَأَمَّلُ مِنَ النَّافِذَةِ، وَكَانَ مَشْدُوهًا لِأَنَّهُ فِي الْهِنْدِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَمَاكِنِ؛ وَفِي الْوَاقِعِ كَانَ بَدَأَ يُغَيِّرُ فِكْرَتَهُ عَنِ الرِّحْلَةِ الْعَاصِفَةِ، بَلْ وَبَدَأَ يَسْتَمْتِعُ بِهَا.

وَفَجْأَةً تَوَقَّفَ الْقِطَارُ وَصَاحَ مُحَصِّلُ الْقِطَارِ: «عَلَى جَمِيعِ الرُّكَّابِ مُغَادَرَةُ الْقِطَارِ هُنَا!»

نَظَرَ فيلياس إِلَى السِّيرْ فرانسيس، وَلَكِنَّهُ هُوَ أَيْضًا لَمْ يَكُنْ يُدْرِكُ سَبَبَ تَوَقُّفِهِمْ، وَبِالْخَارِجِ كَانَتْ هُنَاكَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ مُحَاطَةٌ بِغَابَاتٍ مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ. انْدَفَعَ باسبارتو خَارِجَ الْقِطَارِ لِيَرَى مَا يَحْدُثُ.

وَعِنْدَ عَوْدَتِهِ قَالَ: «سَيِّدِي! لَا يُوجَدُ الْمَزِيدُ مِنَ الْقُضْبَانِ!»

سَأَلَهُ السِّيرْ فرانسيس: «مَاذَا تَعْنِي؟»

أَجَابَ باسبارتو: «أَقْصِدُ أَنَّ الْقِطَارَ لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ السَّفَرِ لِأَبْعَدَ مِنْ هُنَا.»

خَرَجَ الْجِنِرَالُ وَلَحِقَ بِهِ فيلياس فوج وَذَهَبَا لِيَتَحَدَّثَا مَعَ مُحَصِّلِ الْقِطَارِ.

سَأَلَ السِّيرْ فرانسيس: «مَاذَا يَحْدُثُ؟»

– «لَمْ يَنْتَهِ إِنْشَاءُ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ بَعْدُ، لَا تَزَالُ هُنَاكَ مَسَافَةُ خَمْسِينَ مِيلًا لَمْ يَنْتَهِ إِنْشَاؤُهَا، يَتَعَيَّنُ عَلَيْكُمُ اسْتِكْمَالُ طَرِيقِكُمْ وَحْدَكُمْ مِنْ هُنَا.»

وَبَعْدَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، تَرَكَ الْمُحَصِّلُ الرِّجَالَ الثَّلَاثَةَ، وَلَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْهُمْ يَعْلَمُ مَاذَا سَيَفْعَلُ بَعْدُ.

لَقَدْ كَانَتْ كُلُّ الصُّحُفِ اللَّنْدَنِيَّةِ مُخْطِئَةً؛ حَيْثُ إِنَّ السِّكَكَ الْحَدِيدِيَّةَ الَّتِي تَقْطَعُ الْهِنْدَ كَانَتْ عَلَى وَشْكِ الِانْتِهَاءِ.

قَالَ السِّيرْ فرانسيس: «بِالتَّأْكِيدِ، سَتُمَثِّلُ هَذِهِ مُشْكِلَةً لَكَ؛ إِذْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الْوُصُولَ إِلَى كلكتا الْآنَ.»

قَالَ فيلياس: «بِالْعَكْسِ، لَدَيَّ عِدَّةُ أَيَّامٍ إِضَافِيَّةٍ؛ فَالْيَوْمَ مَا زَالَ الثَّانِيَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أُكْتُوبَرَ وَلَنْ تُغَادِرَ الْبَاخِرَةُ إِلَى هونج كونج إِلَّا يَوْمَ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ، فَمَا زَالَ لَدَيْنَا مُتَّسَعٌ مِنَ الْوَقْتِ لِلْوُصُولِ إِلَى كلكتا.»

قَرَّرَ فيلياس: «سَنَقْطَعُ الْمَسَافَةَ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ.»

نَظَرَ باسبارتو إِلَى حِذَائِهِ الْجَدِيدِ، وَالَّذِي لَنْ يَصْمُدَ لِمَسَافَةِ خَمْسِينَ مِيلًا مِنَ السَّيْرِ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ لِدَقِيقَةٍ ثُمَّ قَالَ: «أَعْتَقِدُ أَنَّنِي وَجَدْتُ طَرِيقًا آخَرَ يَا سَيِّدِي!»

قَالَ فيلياس: «مَا هُوَ يَا باسبارتو؟»

أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى كُوخٍ صَغِيرٍ يَبْعُدُ عِدَّةَ يَارْدَاتٍ عَنِ الْمَحَطَّةِ وَقَالَ: «فِيلٌ!» وكَانَ ثَمَّةَ فِيلٌ يَقِفُ هُنَاكَ بِالْفِعْلِ، وَسَارَ الرِّجَالُ الثَّلَاثَةُ إِلَى الْكُوخِ وَطَرَقُوا الْبَابَ، فَخَرَجَ رَجُلٌ هِنْدِيٌّ وَأَرَاهُمْ «كيوني»، وَكَانَ هَذَا هُوَ اسْمَ الْفِيلَةِ.

حَاوَلَ فيلياس تَأْجِيرَ الْفِيلَةِ لِإِيصَالِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ «الله أباد»، حَيْثُ تَسْتَأْنِفُ السِّكَّةُ الْحَدِيدِيَّةُ رِحْلَتَهَا، وَلَكِنَّ الْمَالِكَ رَفَضَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَبْلَغًا أَكْبَرَ مِنَ الْمَالِ، لَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَى الرَّفْضِ. وَبَعْدَ عِدَّةِ دَقَائِقَ مِنَ الْمُسَاوَمَةِ عَرَضَ فيلياس مَبْلَغَ سِتِّمِائَةِ جُنَيْهٍ، وَلَكِنَّ الْإِجَابَةَ كَانَتْ لَا تَزَالُ بِالرَّفْضِ! ثُمَّ حَاوَلَ شِرَاءَ كيوني مُقَابِلَ أَلْفِ جُنَيْهٍ، وَلَمْ يَلْقَ عَرْضُهُ قَبُولًا كَذَلِكَ! فِي النِّهَايَةِ اضْطُرَّ فيلياس لِعَرْضِ شِرَائِهَا مُقَابِلَ أَلْفَيْ جُنَيْهٍ حَتَّى يُوَافِقَ الْمَالِكُ.

قَالَ باسبارتو: «أَلْفَا جُنَيْهٍ مِنْ أَجْلِ فِيلَةٍ!» وَتَعَجَّبَ لِأَنَّ سَيِّدَهُ كَانَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِإِنْفَاقِ كُلِّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ!

لَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ تَعَيَّنَ عَلَيْهِمُ الْعُثُورُ عَلَى مُرْشِدٍ، وَوَجَدُوا فِي الْمَدِينَةِ شَابًّا لَطِيفًا يُدْعَى عَلِيًّا فَاسْتَأْجَرُوهُ عَلَى الْفَوْرِ. كَمَا اشْتَرَوُا الْمُؤَنَ كَذَلِكَ وَأَصْبَحُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلرَّحِيلِ. جَلَسَ فيلياس وَالسِّيرْ فرانسيس عَلَى كُرْسِيَّيْنِ عَلَى جَانِبَيِ الْفِيلَةِ — يُطْلَقُ عَلَيْهِمَا هَوْدَجٌ — بَيْنَمَا جَلَسَ باسبارتو بَيْنَ الرِّجْلَيْنِ، عَلَى ظَهْرِ كيوني، وَجَلَسَ مُرْشِدُهُمْ عَلَى رَقَبَتِهَا، وَبَدَءُوا رِحْلَتَهُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ فِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ، وَبَدَءُوا يَشُقُّونَ طَرِيقَهُمْ عَبْرَ غَابَةِ النَّخِيلِ الْمُحِيطَةِ بِهِمْ.

الفصل السابع

مُغَامَرَةُ فيلياس فوج وباسبارتو وَالسِّيرْ فرانسيس

كَانَتِ الْفِيلَةُ تَقْذِفُ السِّيرْ فرانسيس وفيلياس يَمْنَةً وَيَسْرَةً وَهِيَ تَشُقُّ طَرِيقَهَا رَكْضًا فِي الْغَابَةِ وَهُمَا يَجْلِسَانِ فِي وَضْعٍ غَيْرِ مُرِيحٍ فِي الْهَوْدَجِ. وَقَدْ أَخَبَرَهُمْ عَلِيٌّ أَنَّهُمْ يُمْكِنُهُمْ تَوْفِيرُ الْكَثِيرِ مِنَ الْوَقْتِ إِذَا سَلَكُوا طَرِيقًا مُخْتَصَرًا، فَوَافَقُوا، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الطَّرِيقَ كَانَ أَكْثَرَ وُعُورَةً مِنَ الطَّرِيقِ الْعَادِيِّ، وَكَانَ باسبارتو يَثِبُ كَالْكُرَةِ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ، وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ مُؤْلِمًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَسْتَمْتِعُ بِالرِّحْلَةِ وَيَشْعُرُ كَأَنَّهُ مُهَرِّجٌ يَقْفِزُ فَوْقَ قَنْطَرَةٍ.

مَرَّ الرِّجَالُ عَبْرَ غَابَةٍ كَثِيفَةٍ ثُمَّ عَبْرَ حُقُولٍ جَافَّةٍ، وَرَأَوْا بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ — وَأَكْثَرُ مَا رَأَوْهُ كَانَ الْقُرُودَ — وَقَدْ أَعْجَبَتْ باسبارتو كَثِيرًا. وَكَانَ الرُّكَّابُ يَشْعُرُونَ بِبَعْضِ الْخَوْفِ مِنَ السَّفَرِ عَبْرَ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ الْوَعْرَةِ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ «الله أباد»؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُدْرِكُونَ أَنَّ هُنَاكَ قُطَّاعَ طُرُقٍ يَحْكُمُونَ هَذِهِ الْأَرَاضِيَ، وَلَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْهُمْ يَرْغَبُ فِي مُوَاجَهَةِ الْمَتَاعِبِ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ باسبارتو أَحَبَّ وُجُودَهُ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلَةِ، فَقَدْ كَانَ يَتَسَاءَلُ عَمَّا سَيَفْعَلُهُ السَّيِّدُ بكيوني عَقِبَ وُصُولِهِمْ إِلَى «الله أباد»، وَظَلَّ يُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَهُمْ يَشُقُّونَ طَرِيقَهُمْ فِي عُجَالَةٍ.

وَمَعَ حُلُولِ الْمَسَاءِ، كَانَ الرِّجَالُ قَدْ قَطَعُوا نِصْفَ الْمَسَافَةِ إِلَى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ الْأُخْرَى، وَكَانَتْ لَيْلَةً بَارِدَةً؛ فَتَوَقَّفُوا عِنْدَ كُوخٍ مُتَهَدِّمٍ حَيْثُ أَشْعَلَ مُرْشِدُهُمْ نَارًا

لِلتَّدْفِئَةِ، وَنَامَتْ كيوني خَارِجَ الْكُوخِ مُسْتَنِدَةً إِلَى شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَسُرْعَانَ مَا غَطُّوا جَمِيعًا فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ حَتَّى أَصْبَحَ صَوْتُ شَخِيرِهِمْ مَسْمُوعًا.

وَبِحُلُولِ السَّادِسَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي كَانُوا يَشُقُّونَ طَرِيقَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى، وَأَرَادَ عَلِيٌّ تَوْصِيلَهُمْ إِلَى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ فِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ فيلياس لَنْ يَخْسَرَ سِوَى الْقَلِيلِ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي كَسَبَهُ مُنْذُ بَدْءِ رِحْلَتِهِ. تَوَقَّفَ الرِّجَالُ تَحْتَ شَجَرَةِ مَوْزٍ لِتَنَاوُلِ وَجْبَةٍ خَفِيفَةٍ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ أَمَامَهُمْ سِوَى مَسَافَةِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا فَقَطْ لِيَقْطَعُوهَا.

بَعْدَ الرَّاحَةِ، قَادَ عَلِيٌّ كيوني إِلَى الْغَابَةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَكَانُوا حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتِ قَدْ تَجَنَّبُوا كُلَّ إِشَارَاتِ قَاطِعِي الطُّرُقِ وَأَرَادُوا الِاسْتِمْرَارَ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ.

وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتْ كيوني.

فَسَأَلَ السِّيرْ فرانسيس وَهُوَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ مِنَ الْهَوْدَجِ: «مَاذَا حَدَثَ؟» ثُمَّ سَمِعَ الرِّجَالُ أَصْوَاتًا عَالِيَةً قَادِمَةً عَبْرَ الْغَابَةِ.

فَقَالَ عَلِيٌّ: «أَسْرِعُوا، يَجِبُ أَنْ نَخْتَبِئَ.»

ثُمَّ قَادَ كيوني خَارِجَ الطَّرِيقِ حَتَّى لَا يَرَاهُمُ الْقَادِمُونَ، وَاقْتَرَبَتْ أَصْوَاتُ الْمُعَدَّاتِ وَالضَّوْضَاءُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، ثُمَّ ظَهَرَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ يَرْتَدُونَ الزِّيَّ الْمَحَلِّيَّ وَيَجُرُّونَ عَرَبَةً عَلَيْهَا تِمْثَالٌ قَبِيحٌ.

هَمَسَ السِّيرْ فرانسيس: «هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ رَأَوْنَا؟» فَأَشَارَ عَلِيٌّ لَهُ بِيَدِهِ أَنْ يَصْمُتَ.

رَقَصَ بَعْضُ الرِّجَالِ حَوْلَ التِّمْثَالِ، وَكَانَ الْعَدِيدُ مِنْهُمْ يَرْتَدُونَ أَثْوَابًا طَوِيلَةً، وَكَانَتْ مَجْمُوعَةٌ أُخْرَى تَجُرُّ امْرَأَةً خَلْفَهَا، وَكَانَتْ تَسْقُطُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا تَقْرِيبًا، وَكَانَتْ شَابَّةً حَسْنَاءَ مُرْتَدِيَةً جَوَاهِرَ فِي يَدَيْهَا وَقَدَمَيْهَا وَرَقَبَتِهَا وَذِرَاعَيْهَا وَسَاقَيْهَا، وَكَانَ الْحُرَّاسُ الَّذِينَ يَتْبَعُونَهَا يَحْمِلُونَ سُيُوفًا عِمْلَاقَةً حَادَّةً.

هَمَسَ السِّيرْ فرانسيس: «أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ سَيُؤْذُونَ تِلْكَ الْفَتَاةَ الْمِسْكِينَةَ.»

فَأَجَابَهُ فيلياس: «أَعْتَقِدُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ. إِنَّهَا أَمِيرَةٌ، انْظُرُوا إِلَى مَا تَرْتَدِيهِ. لَدَيَّ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً زَائِدَةً مِنَ الْوَقْتِ، يَجِبُ عَلَيْنَا إِنْقَاذُهَا!»

قَالَ السِّيرْ فرانسيس: «مُوَافِقٌ!»

وَأَضَافَ باسبارتو: «مُوَافِقٌ!»

فَقَالَ عَلِيٌّ: «إِذَا أَمْسَكُوا بِكُمْ، فَإِنَّهُمْ حَتْمًا سَيُعَذِّبُونَكُمْ، وَلَكِنِّي سَأُسَاعِدُكُمْ، فَتِلْكَ الْفَتَاةُ الَّتِي يَأْسِرُونَهَا هِيَ ابْنَةُ تَاجِرٍ ثَرِيٍّ فِي بومباي، وَهِيَ فَتَاةٌ مَشْهُورَةٌ وَتُدْعَى عودا.»

قَالَ فيلياس: «هَذَا يُفَسِّرُ الْأَمْرَ، لَقَدْ أَسَرُوهَا لِلْحُصُولِ عَلَى فِدْيَةٍ مِنْ أَهْلِهَا لِإِعَادَتِهَا! دَعُونَا نُفَكِّرْ فِي خُطَّةٍ، وَمِنَ الْأَفْضَلِ الِانْتِظَارُ حَتَّى هُبُوطِ اللَّيْلِ.»

أَوْمَأَ الْجَمِيعُ، وَأَضَافَ السِّيرْ فرانسيس: «يَجِبُ عَلَيْنَا نَقْلُ مُخَيَّمِنَا بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ، فَهَكَذَا يُمْكِنُ لَنَا رَصْدُ مَا يَفْعَلُونَهُ.»

رَبَطُوا كيوني ثُمَّ اقْتَرَبُوا مِنَ الْمُخَيَّمِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ نِيرَانٌ كَثِيفَةٌ تَشْتَعِلُ، وَسَمِعُوا صَخَبًا كَبِيرًا. خَطَّطَ الرِّجَالُ لِشَقِّ جِدَارِ حَائِطِ الْكُوخِ حَيْثُ كَانَتِ الْفَتَاةُ مُحْتَجَزَةً، ثُمَّ خَطْفِهَا مِنْ هُنَاكَ، وَانْتَظَرُوا حَتَّى حَلَّ الظَّلَامُ وَنَامَ الْحُرَّاسُ، ثُمَّ تَسَلَّلَ عَلِيٌّ وباسبارتو وَبَدَآ فِي تَحْطِيمِ الْجِدَارِ، بَيْنَمَا كَانَ السِّيرْ فرانسيس وفيلياس يُرَاقِبَانِ مِنْ خَلْفِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ.

وَفَجْأَةً هَمَسَ فيلياس: «يَا إِلَهِي! لَقَدِ اسْتَيْقَظَ الْحَارِسُ! يَجِبُ أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَعْثُرَ عَلَى باسبارتو.»

تَسَلَّلَ الرَّجُلَانِ بِهُدُوءٍ خَلْفَ الْحَارِسِ وَضَرَبَاهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ بِنِيَّتِهِمَا إِلْحَاقُ أَذًى شَدِيدٍ بِهِ، فَقَطْ أَرَادُوا إِبْقَاءَهُ نَائِمًا. وَانْضَمَّ السِّيرْ فرانسيس وفيلياس إِلَى باسبارتو وَعَلِيٍّ لِشَقِّ الْحَائِطِ، وَفِي النِّهَايَةِ نَجَحُوا فِي عُبُورِهِ!

كَانَتِ الْفَتَاةُ الْمِسْكِينَةُ مُلْقَاةً عَلَى السَّرِيرِ وَتَبْدُو كالْمَيِّتَةِ، حَمَلَهَا باسبارتو بِحَذَرٍ، وقَالَ فيلياس: «أَسْرِعْ! عَلَيْنَا أَنْ نَخْرُجَ مِنْ هُنَا حَالًا!»

زَحَفَ الرِّجَالُ عَبْرَ التَّجْوِيفِ الصَّغِيرِ فِي الْجِدَارِ، وَرَكَضُوا بِسُرْعَةٍ عَائِدِينَ إِلَى كيوني، وَلَكِنَّ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ رَأَوْهُمْ! فَطَارَدُوهُمْ عَبْرَ الْغَابَةِ، وَانْهَالَ سَيْلٌ مِنَ الْأَسْهُمِ عَلَيْهِمْ، وَرَكَضَ عَلِيٌّ مُبَاشَرَةً بِأَقْصَى سُرْعَةٍ فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُسَاعِدَ الْجَمِيعَ فِي الصُّعُودِ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلَةِ، وَسُرْعَانَ مَا صَعِدُوا عَلَى ظَهْرِ كيوني الَّتِي انْطَلَقَتْ تَخْتَرِقُ الْغَابَةَ.

صَاحَ السِّيرْ فرانسيس: «لَقَدْ نَجَحْنَا! لَقَدْ نَجَحْنَا! أَحْسَنْتُمْ جَمِيعًا! أَحْسَنْتُمْ!»

وَضَعَ فيلياس عودا بِأَمَانٍ فِي أَحَدِ الْهَوْدَجَيْنِ وَكَانَتْ لَا تَزَالُ تَغُطُّ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ، بَلْ إِنَّهَا لَمْ تَسْتَيْقِظْ قَطُّ! ثُمَّ انْضَمَّ إِلَى باسبارتو عَلَى ظَهْرِ كيوني، بَيْنَمَا بَقِيَ السِّيرْ فرانسيس فِي الْهَوْدَجِ الْآخَرِ.

الفصل الثامن

رِحْلَةٌ عَبْرَ نَهْرِ الجانج

تَقَدَّمَ الْفَرِيقُ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ فِي اتِّجَاهِ «الله أباد»، حَتَّى إِنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى مَحَطَّةِ الْقِطَارِ مَعَ وَقْتٍ مُبَكِّرٍ مِنَ الصَّبَاحِ.

وَفَوْرَ وُصُولِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ «الله أباد»، طَلَبَ فيلياس مِنْ باسبارتو تَنْفِيذَ بَعْضِ الْمَهَامِّ، وَكَانَ باسبارتو سَعِيدًا بِذَلِكَ، هَذَا بِجَانِبِ أَنَّهُ كَانَ شَغُوفًا بِاسْتِكْشَافِ الْمَدِينَةِ.

وَعِنْدَمَا عَادَ باسبارتو، كَانَ الْوَقْتُ قَدْ حَانَ لِوَدَاعِ عَلِيٍّ؛ فَدَفَعَ لَهُ فيلياس نُقُودَهُ وقَالَ: «عَلِيُّ، لَقَدْ كُنْتَ خَيْرَ عَوْنٍ لَنَا، هَلْ تَوَدُّ الِاحْتِفَاظَ بِكيوني؟»

أَجَابَ عَلِيٌّ: «سَيِّدِي! هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ؟ إِنَّهَا تُقَدَّرُ بِثَرْوَةٍ. هَذَا كَرَمٌ كَبِيرٌ مِنْكَ! إِنَّنِي لَا أُصَدِّقُ ذَلِكَ!»

قَالَ فيلياس: «إِنَّكَ تَسْتَحِقُّ هَذِهِ الْهَدِيَّةَ.»

قَالَ باسبارتو: «يَا إِلَهِي! إِنَّنِي سَعِيدٌ أَنَّكَ سَوْفَ تَأْخُذُهَا يَا عَلِيُّ؛ فَكيوني سَتَكُونُ صَدِيقَةً شُجَاعَةً وَمُخْلِصَةً.»

ثُمَّ رَبَّتَ باسبارتو عَلَى خُرْطُومِ كيوني، فَحَمَلَتْهُ كيوني بِخُرْطُومِهَا عَالِيًا فِي الْهَوَاءِ، فَضَحِكَ الْخَادِمُ وَرَبَّتَ عَلَى رَأْسِ كيوني الَّتِي أَعَادَتْهُ بِرِفْقٍ إِلَى الْأَرْضِ مَرَّةً أُخْرَى.

انْطَلَقَتْ صَافِرَةُ الْقِطَارِ مُعْلِنَةً أَنَّهُ حَانَ وَقْتُ الصُّعُودِ إِلَى الْقِطَارِ. حَمَلَ السِّيرْ فرانسيس عودا وَوَضَعَهَا بِحَذَرٍ فِي عَرَبَةِ الْقِطَارِ، وَسُرْعَانَ مَا كَانَ الْقِطَارُ يَشُقُّ طَرِيقَهُ مُسْرِعًا نَحْوَ بيناريس. وَبَعْدَ بِضْعِ سَاعَاتٍ، اسْتَيْقَظَتْ عودا وَكَانَتْ فِي حَالَةٍ مِنَ الذُّهُولِ

وَالْفَزَعِ، كَمَا شَعَرَتْ بِالدَّهْشَةِ لِأَنَّهَا عَلَى مَتْنِ قِطَارٍ سَرِيعٍ وَلَيْسَتْ مُقَيَّدَةً فِي الْكُوخِ وَمُحَاطَةً بِقُطَّاعِ الطُّرُقِ.

سَأَلَتْ: «أَيْنَ أَنَا؟»

فَأَجَابَهَا فيلياس: «أَنْتِ فِي أَمَانٍ الْآنَ يَا عَزِيزَتِي، لَقَدْ أَنْقَذْنَاكِ مِنْ أُولَئِكِ الْأَشْرَارِ وَنَأْخُذُكِ مَعَنَا إِلَى بيناريس. أَنَا فيلياس فوج وَهَذَا خَادِمِي باسبارتو وَصَدِيقُنَا السِّيرْ فرانسيس.»

شَكَرَتْهُمْ جَمِيعًا لِمُسَاعَدَتِهَا وَإِنْقَاذِ حَيَاتِهَا، وَقَالَتْ إِنَّهَا لَنْ تَسْتَطِيعَ أَبَدًا رَدَّ جَمِيلِهِمْ لِكُلِّ مَا فَعَلُوهُ مِنْ أَجْلِهَا.

قَالَ فيلياس: «لَا تَقُولِي هَذَا، هَذَا مِنْ دَوَاعِي سُرُورِنَا.»

– «لَقَدْ قَتَلَ قُطَّاعُ الطُّرُقِ عَائِلَتِي كُلَّهَا، وَكَانُوا سَيَقْتُلُونَنِي أَنَا أَيْضًا لَوْلَا تَدَخُّلُكُمْ لِإِنْقَاذِي.»

– «هَذَا يَعْنِي أَنَّ حَيَاتَكِ سَتَكُونُ مُعَرَّضَةً لِلْخَطَرِ دَائِمًا إِذَا بَقِيتِي هُنَا. هَلْ تَوَدِّينَ مُرَافَقَتَنَا إِلَى هونج كونج، إِنَّنَا نَتَّجِهُ إِلَى هُنَاكَ؟»

قَالَت عودا بِهُدُوءٍ: «سَأَكُونُ مُمْتَنَّةً لِذَلِكَ، شُكْرًا مَرَّةً أُخْرَى عَلَى كُلِّ مَا فَعَلْتُمُوهُ مِنْ أَجْلِي.»

عِنْدَمَا وَصَلَ الْقِطَارُ إِلَى مَدِينَةِ بيناريس، وَدَّعَ الْمُسَافِرُونَ السِّيرْ فرانسيس الَّذِي تَمَنَّى لَهُمُ النَّجَاحَ وَالتَّوْفِيقَ، وَقَالَ إِنَّهُ يَتَمَنَّى رُؤْيَتَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى قَرِيبًا.

الفصل التاسع

فيلياس فوج يُنْفِقُ مَبالِغَ طَائِلَةً

وَصَلَ الْقِطَارُ إِلَى الْمَحَطَّةِ فِي كلكتا، وَنَزَلَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ عَلَى مَتْنِهِ، وَأَرَادَ فيلياس التَّوَجُّهَ مُبَاشَرَةً إِلَى الْبَاخِرَةِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى هونج كونج حَتَّى يَصْعَدَ عَلَى مَتْنِهَا وَهُوَ لَا يَزَالُ لَدَيْهِ مُتَّسَعٌ مِنَ الْوَقْتِ، وَكَانَ لَدَيْهِمْ بِضْعُ سَاعَاتٍ حَتَّى تَحِينَ لَحْظَةُ مُغَادَرَةِ السَّفِينَةِ. وَأَرَادَ فيلياس أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ عودا عَلَى مَا يُرَامُ وَلَدَيْهَا كُلُّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ وَبِالطَّبْعِ كَانَ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ باسبارتو سَيَقُومُ بِبَعْضِ الْمَهَامِّ.

وَبِمُجَرَّدِ أَنْ سَاعَدَ فيلياس عودا عَلَى النُّزُولِ مِنَ الْقِطَارِ، أَوْقَفَهُ شُرْطِيٌّ وَسَأَلَهُ: «هَلْ أَنْتَ السَّيِّدُ فيلياس فوج؟»

أَجَابَ فيلياس: «نَعَمْ.»

ثُمَّ أَشَارَ الشُّرْطِيُّ إِلَى باسبارتو: «هَلْ هَذَا الرَّجُلُ هُوَ خَادِمُكَ؟»

– «نَعَمْ.»

– «إِذَنْ، عَلَيْكُمَا أَنْتُمَا الِاثْنَيْنِ الْقُدُومُ مَعِي.»

تَوَجَّهَ الشُّرْطِيُّ إِلَى عَرَبَةٍ وَفَتَحَ الْبَابَ لَهُمَا، فَقَالَ فيلياس لعودا أَنْ تَأْتِيَ مَعَهُمَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ تَظَلَّ بِمُفْرَدِهَا.

بَعْدَ رِحْلَةٍ صَامِتَةٍ اسْتَمَرَّتْ عِشْرِينَ دَقِيقَةً، وَصَلُوا إِلَى مَنْزِلٍ صَغِيرٍ، وَفَتَحَ الشُّرْطِيُّ بَابَ الْعَرَبَةِ، وَقَالَ لَهُمْ وَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْهَا: «اتْبَعُونِي.»

وَقَادَ الثَّلَاثَةَ إِلَى غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ بِهَا قُضْبَانٌ عَلَى النَّافِذَةِ، وَقَالَ: «سَوْفَ تَمْثُلُونَ أَمَامَ الْقَاضِي عباديا فِي تَمَامِ الثَّامِنَةِ وَالنِّصْفِ.»

تَعَجَّبَ فيلياس: «أَنَحْنُ سُجَنَاءُ؟ مَا هَذَا الْهُرَاءُ! هُنَاكَ خَطَأٌ مَا.» ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عودا وباسبارتو قَائِلًا: «لَا تَقْلَقَا، فَسَنَكُونُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ بِحُلُولِ الْمَسَاءِ.»

وَبَعْدَ قَلِيلٍ، فُتِحَ الْبَابُ وَعَادَ الشُّرْطِيُّ وَاصْطَحَبَهُمْ إِلَى قَاعَةِ الْمَحْكَمَةِ.

دَخَلَ الْقَاضِي عباديا — وَهُوَ رَجُلٌ ضَخْمٌ مُمْتَلِئُ الْجِسْمِ — إِلَى الْقَاعَةِ.

وَنَادَى الْقَاضِي: «الْقَضِيَّةُ الْأُولَى!»

فَصَاحَ حَاجِبُ الْمَحْكَمَةِ: «فيلياس فوج!»

فَقَالَ فيلياس: «حَاضِرٌ.»

دَخَلَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ إِلَى قَاعَةِ الْمَحْكَمَةِ، فِي الْبِدَايَةِ اعْتَقَدَ فيلياس وَباسبارتو أَنَّهُمْ مِنْ أَفْرَادِ الْعِصَابَةِ وَيُحَاوِلُونَ اسْتِعَادَةَ عودا مَرَّةً أُخْرَى، وَلَكِنْ مَا لَبِثَ أَحَدُهُمْ أَنْ قَدَّمَ حِذَاءَ باسبارتو!

قَالَ الْقَاضِي: «يَا سَيِّدُ باسبارتو، أَنْتَ مُتَّهَمٌ بِالدُّخُولِ غَيْرِ الْقَانُونِيِّ إِلَى مَعْبَدٍ، وَهَذَا الْحِذَاءُ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِكَ هُنَاكَ.»

صَاحَ باسبارتو: «حِذَائِي!»

– «إِذَنْ، أَنْتَ تَعْتَرِفُ بِأَنَّكَ كُنْتَ هُنَاكَ؟»

أَوْمَأَ باسبارتو بِرَأْسِهِ بِبُطْءٍ.

– «حَسَنًا، سَتَدْفَعُ غَرَامَةً قَدْرُهَا مِائَةٌ وَخَمْسُونَ جُنَيْهًا وَسَتَقْضِي أُسْبُوعًا فِي الْحَجْزِ.»

قَالَ فيلياس: «سَوْفَ أَدْفَعُ كَفَالَتَهُ حَتَّى لَا يَدْخُلَ السِّجْنَ، مَا قَدْرُهَا؟»

نَظَرَ الْقَاضِي إِلَيْهِ وَقَالَ: «إِنَّهَا بَاهِظَةٌ لِلْغَايَةِ يَا سَيِّدِي؛ أَلْفَا جُنَيْهٍ.»

أَخَذَ فيلياس لُفَافَةً مِنَ الْأَمْوَالِ مِنْ حَقِيبَتِهِ الْقُمَاشِيَّةِ وَدَفَعَ الْكَفَالَةَ.

كَانَ الْمُحَقِّقُ فيكس يَقِفُ فِي نِهَايَةِ الْقَاعَةِ وَيُشَاهِدُ مَا يَحْدُثُ، وَكَانَ قَدْ ظَنَّ أَنَّهُ وَجَدَ وَسِيلَةً مُؤَكَّدَةً لِإِبْقَاءِ فيلياس فِي الْهِنْدِ حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى أَمْرٍ رَسْمِيٍّ بِإِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ، وَلَكِنِ الْآنَ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ باسبارتو بِكَفَالَةٍ، يَبْدُو أَنَّ فيلياس سَيُفْلِتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مُجَدَّدًا! وَلَمْ يَكُنْ يَتَخَيَّلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنَّ اللِّصَّ سَيَكُونُ بِهَذَا السَّخَاءِ.

قَالَ الْقَاضِي: «حَسَنًا، هَذِهِ الْأَمْوَالُ سَتَعُودُ إِلَيْكَ عِنْدَمَا يُكْمِلُ باسبارتو فَتْرَةَ الْعُقُوبَةِ فِي السِّجْنِ، وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَعُدْ فَسَنُصَادِرُ الْأَمْوَالَ.»

أَوْمَأَ فيلياس وَقَالَ: «حَسَنًا يَا سَيِّدِي»، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عودا وَباسبارتو وَقَالَ: «لِنَذْهَبْ!» اخْتَطَفَ باسبارتو حِذَاءَهُ وَهُوَ خَارِجٌ: «يَجِبُ أَنْ نَتَّجِهَ إِلَى رَصِيفِ الْمِينَاءِ فِي الْحَالِ!»

وَفِي أَسًى، اتَّبَعَ باسبارتو سَيِّدَهُ، فَلَمْ يَكُنْ سَعِيدًا أَنَّ رَئِيسَهُ قَدْ أَنْفَقَ كُلَّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ بِسَبَبِ خَطَأٍ اقْتَرَفَهُ هُوَ، وَلَمَحَ فيكس يَقِفُ فِي الزَّاوِيَةِ وَيَبْدُو عَلَيْهِ الْغَضَبُ الشَّدِيدُ، وَلِوَهْلَةٍ تَعَجَّبَ باسبارتو عَمَّا يَفْعَلُهُ هُنَاكَ، لَكِنَّهُ كَانَ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَلَمْ يُعْطِ لِلْأَمْرِ اهْتِمَامًا.

الفصل العاشر

الرِّحْلَةُ مِنَ الْهِنْدِ إِلَى هونج كونج

صَعِدَ الْمُسَافِرُونَ الثَّلَاثَةُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «رانجون» فِي مَوْعِدِهِمْ، وَكَانَتِ الْبَاخِرَةُ عَلَى وَشْكِ الرَّحِيلِ إِلَى هونج كونج. قَضَتْ عودا أَغْلَبَ أَيَّامِهَا الْأُولَى فِي الرِّحْلَةِ فِي التَّعَرُّفِ عَلَى فيلياس وَباسبارتو، وَحَكَتْ لَهُمَا قِصَّةَ حَيَاتِهَا؛ فَقَدْ كَانَ وَالِدُهَا تَاجِرَ قُطْنٍ فَاحِشَ الثَّرَاءِ، وَقَدْ عَاشُوا حَيَاةً رَغْدَةً حَتَّى وَاجَهَتْ وَالِدَهَا مُشْكِلَاتٌ مَعَ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ. ثُمَّ أَخْبَرَتْهُمْ عَنْ قَرِيبِهَا جيجاه جيجيبوي الَّذِي يَعِيشُ فِي هونج كونج.

وَكَمَا كَانَ الْحَالُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «منغوليا»، قَضَى باسبارتو مُعْظَمَ أَوْقَاتِ الظَّهِيرَةِ يَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ الْبَاخِرَةِ. وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ وَبَيْنَمَا كَانَ يَتَنَزَّهُ، تَفَاجَأَ بِرُؤْيَةِ السَّيِّدِ فيكس!

قَالَ باسبارتو: «يَا إِلَهِي! مَاذَا تَفْعَلُ هُنَا بِحَقِّ السَّمَاءِ يَا سَيِّدِي؟ لَقَدْ تَرَكْتُكَ فِي بومباي، وَرَأَيْتُكَ لِفَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ فِي كلكتا، وَالْآنَ أَنْتَ هُنَا فِي طَرِيقِكَ إِلَى هونج كونج. هَلْ أَنْتَ أَيْضًا تَقُومُ بِجَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ؟»

قَالَ فيكس: «كَلَّا، كَلَّا، فَأَنَا سَأَتَوَقَّفُ فِي هونج كونج.»

كَانَ فيكس بِالْفِعْلِ قَدْ أَرْسَلَ بَرْقِيَّةً أُخْرَى إِلَى لَنْدَنَ لِيَطْلُبَ إِرْسَالَ أَمْرِ الْقَبْضِ إِلَى هونج كونج، وَكَانَتْ هَذِهِ فُرْصَتَهُ الْأَخِيرَةَ لِلْقَبْضِ عَلَى فيلياس فوج، لِصِّ الْبَنْكِ؛ إِذْ إِنَّهُ بِمُجَرَّدِ أَنْ يُغَادِرَ هونج كونج وَيَصِلَ إِلَى أَمْرِيكَا، فَلَنْ يَعُودَ عَلَى الْأَرَاضِي الْبِرِيطَانِيَّةِ، وَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ فيكس لَنْ يَسْتَطِيعَ إِلْقَاءَ الْقَبْضِ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ. كَانَ فيكس يَشْعُرُ بِالْإِحْبَاطِ مِنْ وُصُولِهِ إِلَى هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، وَيَشْعُرُ بِالتَّعَبِ مِنْ مُلَاحَقَةِ فيلياس حَوْلَ الْعَالَمِ.

سَأَلَ باسبارتو: «كَيْفَ لَمْ أَرَكَ مُنْذُ مُغَادَرَتِنَا كلكتا؟»

قَالَ فيكس: «آهْ، لَقَدْ كُنْتُ مُصَابًا بِدُوَارِ الْبَحْرِ، كَيْفَ حَالُ السَّيِّدِ فوج؟»

– «عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ، لَا يَتَخَلَّفُ عَنْ جَدْوَلِهِ وَلَوْ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ! وَالْآنَ تُسَافِرُ مَعَنَا سَيِّدَةٌ شَابَّةٌ كَذَلِكَ!»

تَظَاهَرَ فيكس بِالِانْدِهَاشِ، وَحَكَى لَهُ باسبارتو كَيْفَ أَنْقَذُوا عودا مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ فِي الْهِنْدِ.

سَأَلَهُ فيكس: «وَهَلْ سَتُسَافِرُ عودا مَعَكُمْ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى أُورُوبَّا؟»

– «كَلَّا، سَتُقِيمُ لَدَى قَرِيبِهَا فِي هونج كونج، حَيْثُ سَتَكُونُ بِأَمَانٍ هُنَاكَ.»

وَكَمَا كَانَ الْحَالُ تَمَامًا فِي كُلِّ ظَهِيرَةٍ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «منغوليا»، كَانَ الرَّجُلَانِ يَحْتَسِيَانِ مَعًا كُوبَيْنِ مِنَ اللَّيْمُونِ وَيَسِيرَانِ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ مَعًا.

وَبِمُرُورِ الْأَيَّامِ، بَدَأَ باسبارتو يُفَكِّرُ أَنَّهُ مِنَ الْغَرِيبِ جِدًّا أَنْ يُصَادِفَ السَّيِّدَ فيكس كَثِيرًا. وَفَجْأَةً جَالَتْ بِخَاطِرِهِ فِكْرَةٌ اقْشَعَرَّ لَهَا بَدَنُهُ: «إِنَّهُ يَتَتَبَّعُنَا!»

– «نَعَمْ، إِنَّهُ بِالطَّبْعِ جَاسُوسٌ أَرْسَلُوهُ مِنْ نَادِي «ريفورم كلوب»، لَكِنَّ سَيِّدِي رَجُلٌ أَمِينٌ وَصَادِقٌ. إِنَّهُ لَأَمْرٌ فَظِيعٌ.»

وَقَرَّرَ أَلَّا يُبْلِغَ فيلياس بِالْأَمْرِ، فَلَمْ يُرِدْهُ أَنْ يُسِيءَ الظَّنَّ بِأَصْدِقَائِهِ مِنَ النَّادِي، وَلِهَذَا احْتَفَظَ بِالْأَمْرِ لِنَفْسِهِ. كَمَا لَمْ يُرِدْ أَنْ يُدْرِكَ السَّيِّدُ فيكس أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِأَمْرِهِ، فَهَذَا قَدْ يُسَبِّبُ بَعْضَ الْمُشْكِلَاتِ بَيْنَ فيلياس فوج وَنَادِي «ريفورم كلوب»، وَكَانَ آخِرُ شَيْءٍ يُرِيدُهُ باسبارتو هُوَ أَنْ يُسَبِّبَ مَزِيدًا مِنَ الْمُشْكِلَاتِ لِسَيِّدِهِ.

رَسَتِ الْبَاخِرَةُ «رانجون» فِي سنغافورةَ قَبْلَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ مَوْعِدِهَا، وَكَالْمُعْتَادِ دَوَّنَ فيلياس ذَلِكَ فِي دَفْتَرِ يَوْمِيَّاتِهِ، وَكَالْمُعْتَادِ كَذَلِكَ أَرْسَلَ باسبارتو لِقَضَاءِ مَهَامِّهِ الْمُعْتَادَةِ. وَأَرَادَتْ عودا رُؤْيَةَ بَعْضِ الْأَمَاكِنِ فِي الْجَزِيرَةِ، فَاصْطَحَبَهَا فيلياس فِي رِحْلَةٍ بِالْعَرَبَةِ، وَتَجَوَّلَا قَلِيلًا فِي الْمَدِينَةِ وَهُمَا يَسْتَنْشِقَانَ رَائِحَةَ الْقَرَنْفُلِ وَأَشْجَارِ جَوْزِ الطِّيبِ، وَرَأَيَا السَّرْخَسَ الْأَخْضَرَ وَصُفُوفًا مُتَعَدِّدَةً مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ.

كَمَا تَجَوَّلَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَرَّا بِبُيُوتِهَا وَحَدَائِقِهَا السَّاحِرَةِ. وَبِنِهَايَةِ فَتْرَةِ الصَّبَاحِ، عَادَا إِلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «رانجون» وَكَانَا مُسْتَعِدَّيْنِ لِلْإِبْحَارِ ثَانِيَةً. كَمَا أَنْهَى باسبارتو مَهَامَّهُ وَأَحْضَرَ بَعْضَ الْفَاكِهَةِ الطَّازَجَةِ الَّتِي شَارَكَهَا مَعَ عودا فَوْرَ عَوْدَتِهَا إِلَى سَطْحِ الْبَاخِرَةِ، ثُمَّ وَدَّعَ الْمُسَافِرُونَ الثَّلَاثَةُ سنغافورة، وَالْبَاخِرَةُ تُغَادِرُ الْمِينَاءَ مُتَّجِهَةً إِلَى هونج كونج.

كَانَتِ الْأَيَّامُ الْأُولَى مِنَ الرِّحْلَةِ هَادِئَةً تَخْلُو مِنَ الْأَحْدَاثِ، فَكَانَ الطَّقْسُ جَمِيلًا وَالرِّيَاحُ مُعْتَدِلَةً، وَلَكِنْ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ فِي الرِّحْلَةِ الَّتِي تَسْتَغْرِقُ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا، تَغَيَّرَ الطَّقْسُ، فَبَدَأَتْ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ تَهْتَاجُ مَعَ بِدَايَةِ الْعَاصِفَةِ، وَتَخَلَّفَتِ السَّفِينَةُ عَنْ مَوْعِدِهَا، وَقَدْ أَغْضَبَ ذَلِكَ باسبارتو فِي حِينِ حَافَظَ فيلياس فوج عَلَى هُدُوئِهِ.

كَانَ فيلياس يُمْضِي نَهَارَهُ مَعَ عودا، بَيْنَمَا كَانَ يُدَوِّنُ مُلَاحَظَاتِهِ فِي الْمَسَاءِ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، وَجَدَ فيكس باسبارتو يَتَحَرَّكُ جِيئَةً وَذَهَابًا بِتَوَتُّرٍ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ.

فَقَالَ: «أَنْتَ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِكَ الْيَوْمَ!»

قَالَ باسبارتو: «عَجَلَةٌ شَدِيدَةٌ! الطَّقْسُ يُؤَخِّرُنَا، وَهَذِهِ السَّفِينَةُ لَيْسَتْ سَرِيعَةً بِمَا يَكْفِي.»

فَسَأَلَهُ فيكس: «إِذَنْ، أَنْتَ تُصَدِّقُ الْآنَ أَنَّكَ فِي جَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ؟»

قَالَ باسبارتو: «بِالطَّبْعِ يَا سَيِّدُ فيكس، أَلَا تُؤْمِنُ بِهَذَا؟» وَغَمَزَ لَهُ ثُمَّ سَارَ مُبْتَعِدًا.

حَيَّرَتْ تِلْكَ الْغَمْزَةُ فيكس، فَهَلْ كَانَتْ تَعْنِي أَنَّ باسبارتو قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ مُحَقِّقٌ؟ هَلِ اكْتَشَفَ الْأَمْرَ؟ وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي تَقَابَلَ الرَّجُلَانِ مَرَّةً أُخْرَى.

قَالَ باسبارتو: «حَسَنًا، هَلْ سَنَرَاكَ مُجَدَّدًا فِي طَرِيقِنَا إِلَى أَمْرِيكَا يَا سَيِّدُ فيكس؟» وَغَمَزَ لَهُ مَرَّةً أُخْرَى.

تَمْتَمَ فيكس: «امم، آهْ، لَا أَعْلَمُ.»

– «هَذَا غَرِيبٌ، فَلَقَدْ كُنْتَ مُسَافِرًا إِلَى بومباي فَقَطْ، وَلَكِنَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ ذَهَبْتَ إِلَى كلكتا، وَهَا أَنْتَ الْآنَ فِي طَرِيقِكَ إِلَى هونج كونج.»

ضَرَبَ باسبارتو فيكس عَلَى ظَهْرِهِ ضَرْبَةً خَفِيفَةً وَهُوَ يُغَادِرُ، فَعَادَ فيكس إِلَى كَابِينَتِهِ وَهُوَ مُشَتَّتَ الذِّهْنِ؛ فَالْخَادِمُ حَتْمًا قَدِ اكْتَشَفَ الْحَقِيقَةَ، وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ: «هُنَاكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَطْ أَسْتَطِيعُ فِعْلَهُ، يَجِبُ أَنْ أُخْبِرَ باسبارتو بِكُلِّ شَيْءٍ.»

كَانَتِ الرِّيَاحُ تَشْتَدُّ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَكْثَرَ عَمَّا قَبْلَهُ، وَكَانَتِ الْأَمْوَاجُ الْعِمْلَاقَةُ تَتَقَاذَفُ الْبَاخِرَةَ، فَأُجْبِرَتِ الْبَاخِرَةُ عَلَى الْإِبْحَارِ بِبُطْءٍ شَدِيدٍ، حَتَّى إِنَّهُمْ سَيَتَأَخَّرُونَ فِي الْوُصُولِ إِلَى هونج كونج لِمُدَّةِ يَوْمٍ كَامِلٍ وَظَلَّ فيلياس هَادِئًا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذَا التَّأْخِيرَ يَعْنِي أَنَّهُ حَتْمًا سَيَخْسَرُ الرِّهَانَ، فَلَقَدِ اسْتَهْلَكَ كُلَّ الْأَيَّامِ الزَّائِدَةِ فِي الْهِنْدِ عِنْدَمَا أُجْبِرُوا عَلَى السَّفَرِ عَلَى

ظَهْرِ الْفِيلَةِ، وَكَانَ يَأْمُلُ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْوَقْتِ. كَانَتْ عودا مُنْدَهِشَةً مِنْ أَنَّهُ لَا يَشْعُرُ بِالْقَلَقِ لِأَنَّهُمْ سَيَفُوتُهُمُ الْمَرْكَبُ مِنْ هونج كونج إِلَى الْيَابَانِ.

بِالطَّبْعِ كَانَ فيكس سَعِيدًا بِهَذَا التَّأْخِيرِ، فَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ مُذَكِّرَتَهُ لَدَيْهَا الْمَزِيدُ مِنَ الْوَقْتِ لِلْوُصُولِ، أَمَّا باسبارتو الْمِسْكِينُ فَكَانَ يَتَمَشَّى ذَهَابًا وَإِيَابًا فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ مِنْ شِدَّةِ قَلَقِهِ.

عِنْدَمَا رَسَتِ الْبَاخِرَةُ أَخِيرًا فِي هونج كونج، غَادَرَ الرُّكَّابُ الثَّلَاثَةُ الْبَاخِرَةَ «رانجون» وَذَهَبُوا لِيَسْأَلُوا عن الْبَاخِرَةِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى مَدِينَةِ يوكوهاما، وَسَأَلَ فيلياس فِي مَكْتَبِ الْجَوَازَاتِ إِذَا كَانُوا قَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ مَوْعِدِ الْبَاخِرَةِ أَمْ لَا.

قَالَ الْمُوَظَّفُ الَّذِي يَخْتِمُ جَوَازَ السَّفَرِ: «كَلَّا، فَقَدْ كَانَتْ لَدَيْهِمْ مُشْكِلَةٌ فِي أَحَدِ الْمَرَاجِلِ؛ فَسَتَتَأَخَّرُ حَتَّى أَوْجِ الْمَدِّ فِي صَبَاحِ الْغَدِ.»

قَالَ فيلياس دُونَ أَنْ تَعْكِسَ مَلَامِحُهُ أَيَّ مَشَاعِرَ: «حَسَنًا، مَا هُوَ اسْمُ الْبَاخِرَةِ؟»

قَالَ الْمُوَظَّفُ: ««كارناتيك»، وَمَكْتَبُ التَّذَاكِرِ فِي نِهَايَةِ الشَّارِعِ.»

انْتَزَعَ باسبارتو يَدَ الرَّجُلِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِحَفَاوَةٍ شَدِيدَةٍ وَهُوَ يَقُولُ بِحَمَاسٍ: «شُكْرًا لَكَ! شُكْرًا لَكَ! أَنْتَ أَفْضَلُ الرِّجَالِ الطَّيِّبِينَ!»

لَقَدْ كَانَ الْحَظُّ فِي جَانِبِهِمْ! فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَرْكَبُ قَدْ تَوَقَّفَ لِلْإِصْلَاحِ، لَكَانَ عَلَيْهِمُ الِانْتِظَارُ لِأُسْبُوعٍ آخَرَ قَبْلَ السَّفَرِ إِلَى الْيَابَانِ. حَجَزَ فيلياس غُرَفًا لَهُمْ فِي فُنْدُقِ «كلوب هوتيل» حَيْثُ سَيَقْضُونَ الْوَقْتَ هُنَاكَ حَتَّى يَصْعَدُوا عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، حَيْثُ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنْ تُبْحِرَ الْبَاخِرَةُ فِي الْخَامِسَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي. وَبَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنْ تَرْتِيبِ هَذَا الْأَمْرِ، تَرَكَ فيلياس عودا فِي صُحْبَةِ باسبارتو وَانْطَلَقَ لِيَبْحَثَ عَنْ قَرِيبِهَا جيجاه جيجيبوي.

وَبَيْنَمَا كَانَ فِي السُّوقِ، صَادَفَ فيلياس تَاجِرًا يَعْرِفُ جيجاه جيجيبوي، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ التَّاجِرُ إِنَّ السَّيِّدَ جيجيبوي قَدْ غَادَرَ هونج كونج مُنْذُ عَامَيْنِ وَانْتَقَلَ إِلَى هُولَنْدَا.

وَعِنْدَمَا عَادَ فيلياس إِلَى الْفُنْدُقِ جَلَسَ مَعَ عودا لِيُخْبِرَهَا أَنَّ قَرِيبَهَا قَدِ انْتَقَلَ.

فِي الْبِدَايَةِ لَمْ تَقُلْ شَيْئًا وَظَلَّتْ تُفَكِّرُ، ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتِهَا الْحُلْوِ الرَّقِيقِ: «مَا الَّذِي عَلَيَّ فِعْلُهُ يَا فيلياس؟»

فَقَالَ: «هَذَا بَسِيطٌ جِدًّا، عَلَيْكِ الذَّهَابُ إِلَى أُورُوبَّا.»

– «وَلَكِنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُونَ عَقَبَةً فِي طَرِيقِكَ.»

فَقَالَ فيلياس: «هَذَا هُرَاءٌ، فَأَنْتِ لَسْتِ عَقَبَةً نِهَائِيًّا. إِنَّهُ لَمِنْ دَوَاعِي سُرُورِنَا أَنْ تُرَافِقِينَا فِي رِحْلَتِنَا. باسبارتو!»

– «سَيِّدِي؟»

– «رَجَاءً احْجِزْ ثَلَاثَ كَبَائِنَ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك»، فَسَنَذْهَبُ جَمِيعًا إِلَى الْيَابَانِ، وَمِنْ هُنَاكَ سَنَتَّجِهُ إِلَى أَمْرِيكَا.»

شَعَرَ باسبارتو بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ لِأَنَّ عودا سَتُسَافِرُ مَعَهُمْ، وَقَفَزَ بِسَعَادَةٍ مُغَادِرًا الْغُرْفَةَ لِيُنَفِّذَ مُهِمَّتَهُ الْجَدِيدَةَ.

الفصل الحادي عشر

باسبارتو يُبَالِغُ فِي الِاهْتِمَامِ لِأَمْرِ فيلياس فوج ... وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ

أَخَذَ باسبارتو يَتَجَوَّلُ فِي هونج كونج وَهُوَ يَضَعُ يَدَيْهِ فِي جُيُوبِهِ، وَكَانَ الْمِينَاءُ يَعِجُّ بِالْعَدِيدِ مِنَ السُّفُنِ مِنْ شَتَّى أَنْحَاءِ الْعَالَمِ: إِنْجِلْتِرَا وَفَرَنْسَا وَالْأَمْرِيكَتَيْنِ وَهُولَنْدَا وَالْيَابَانِ وَالصِّينِ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى رَصِيفِ الْمِينَاءِ حَيْثُ سَيَحْجِزُ كَبَائِنَ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك»، رَأَى فيكس هُنَاكَ، وَلَمْ يَكُنْ مُنْدَهِشًا.

كَانَ الْمُحَقِّقُ نَفْسُهُ لَا يَبْدُو سَعِيدًا؛ إِذْ إِنَّ مُذَكِّرَتَهُ لَمْ تَصِلْ بَعْدُ.

قَالَ باسبارتو: «حَسَنًا، حَسَنًا، هَلْ قَرَّرْتَ الِانْضِمَامَ إِلَى رِحْلَتِنَا إِلَى أَمْرِيكَا يَا فيكس؟»

أَجَابَهُ فيكس وَهُوَ يَكُزُّ عَلَى أَسْنَانِهِ: «نَعَمْ.»

قَالَ باسبارتو: «حَسَنًا! كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْحَالَ سَيَنْتَهِي بِكَ مَعَنَا! تَعَالَ لِنَحْجِزْ كَبَائِنَنَا.»

وَذَهَبَ الرَّجُلَانِ إِلَى مَكْتَبِ الْبَاخِرَةِ حَيْثُ أَخْبَرَهُمَا الْمُوَظَّفُ أَنَّ إِصْلَاحَ السَّفِينَةِ قَدِ انْتَهَى الْآنَ، وَسَتُبْحِرُ فِي الْمَسَاءِ بَدَلًا مِنْ صَبَاحِ الْغَدِ.

قَالَ باسبارتو: «رَائِعٌ! سَأَذْهَبُ لِأُخْبِرَ سَيِّدِي، سَيَكُونُ سَعِيدًا لِلْغَايَةِ.»

قَرَّرَ فيكس أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ لِيُخْبِرَ باسبارتو بِكُلِّ شَيْءٍ؛ إِذْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِإِبْقَاءِ فيلياس فوج فِي هونج كونج حَتَّى وُصُولِ مُذَكِّرَةِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَ الْخَادِمَ إِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُشَارِكَهُ وَجْبَةً مِنَ الطَّعَامِ، وَذَهَبَ الِاثْنَانِ إِلَى مَطْعَمٍ صَغِيرٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَرْفَأِ.

وَبِمُجَرَّدِ أَنْ دَخَلَا إِلَى الْمَطْعَمِ، وَجَدَا نَفْسَيْهِمَا فِي غُرْفَةٍ كَبِيرَةٍ مَلِيئَةٍ بِكَرَاسِيَّ مُرِيحَةٍ وَالْعَدِيدِ مِنَ الْوَسَائِدِ. وَتَجَاذَبَ الرَّجُلَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَلَى الْعَشَاءِ، وَعِنْدَمَا أَنْهَى باسبارتو وَجْبَتَهُ، نَهَضَ لِيُغَادِرَ، فَقَالَ لَهُ فيكس: «انْتَظِرْ، هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ أَوَدُّ أَنْ أَتَحَدَّثَ مَعَكَ عَنْهُ.»

– «يَجِبُ أَنْ تَنْتَظِرَ، فَعَلَيَّ أَنْ أُخْبِرَ سَيِّدِي أَنَّ الْبَاخِرَةَ سَتُغَادِرُ مُبَكِّرًا.»

– «انْتَظِرْ! فَمَا أُرِيدُ قَوْلَهُ مُتَعَلِّقٌ بِالسَّيِّدِ فوج.»

وَضَعَ فيكس يَدَهُ عَلَى ذِرَاعِ باسبارتو وَقَالَ بِهُدُوءٍ: «لَقَدْ خَمَّنْتَ مَنْ أَكُونُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

ابْتَسَمَ باسبارتو: «بِالطَّبْعِ.»

قَالَ فيكس: «حَسَنًا، فَإِنَّكَ حَتْمًا تَعْلَمُ أَنَّ مُهِمَّتِي تَنْطَوِي عَلَى أَمْوَالٍ طَائِلَةٍ، وَأَنَا مُسْتَعِدٌّ أَنْ أُعْطِيَكَ بَعْضًا مِنْهَا إِذَا أَبْقَيْتَ السَّيِّدَ فوج فِي هونج كونج. لَا تُخْبِرْهُ بِأَمْرِ السَّفِينَةِ.»

– «لَا أُخْبِرُهُ! لَقَدْ زَادَ الْأَمْرُ عَنْ حَدِّهِ يَا سَيِّدُ. لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ أَعْضَاءَ نَادِي «ريفورم كلوب» مِنَ الشُّرَفَاءِ.»

نَظَرَ فيكس إِلَى باسبارتو بِاسْتِغْرَابٍ لِوَهْلَةٍ ثُمَّ تَسَاءَلَ: «مَنْ تَظُنُّنِي؟»

– «أَنْتَ جَاسُوسٌ مُرْسَلٌ لِتَتَبُّعِنَا وَلِتَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ فيلياس يَقُومُ بِرِحْلَةٍ نَزِيهَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ قَدْ أُرْسِلْتَ لِتَتَدَخَّلَ فِي الْأَمْرِ، وَلَكِنَّنِي لَنْ أَسْمَحَ بِذَلِكَ. وَرُغْمَ ذَلِكَ، فَأَنَا لَمْ أُبْلِغْ سَيِّدِي بِأَيِّ شَيْءٍ بَعْدُ.»

قَالَ فيكس: «إِذَنْ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا؟ حَسَنًا، انْتَظِرْ دَقِيقَةً، سَأُحْضِرُ لَنَا بَعْضًا مِنْ شَرَابِ الْكَاكَاو.»

نَهَضَ فيكس وَتَرَكَ الطَّاوِلَةَ، وَفِي طَرِيقِهِ لِإِحْضَارِ الْكَاكَاو تَوَقَّفَ لِيَتَحَدَّثَ مَعَ رَجُلٍ فِي زَاوِيَةٍ مُظْلِمَةٍ مِنَ الْغُرْفَةِ. وَكَانَ فيكس قَدْ طَلَبَ مِنَ هَذَا الرَّجُلِ — وَهُوَ مِنْ قِسْمِ شُرْطَةِ هونج كونج — أَنْ يَصْحَبَهُمْ إِلَى الْمَطْعَمِ، وَكَانَ فيكس يَعْلَمُ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا، فَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتْرُكَ فيلياس يُغَادِرُ هونج كونج.

عَادَ فيكس إِلَى الطَّاوِلَةِ وَمَعَهُ كُوبَانِ مِنَ الْكَاكَاو، وَبَدَأَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «باسبارتو، أَخْشَى أَنَّكَ مُخْطِئٌ، فَأَنَا لَسْتُ عُضْوًا فِي نَادِي «ريفورم كلوب»، بَلْ أَنَا مُحَقِّقٌ مِنْ لَنْدَنَ،

وَسَيِّدُكَ مَا هُوَ إِلَّا لِصٌّ قَامَ بِسَرِقَةِ مَبْلَغٍ كَبِيرٍ مِنَ الْمَالِ مِنْ بَنْكِ إِنْجِلْتِرَا، وَلَقَدْ أُرْسِلْتُ لِاسْتِعَادَةِ هَذِهِ الْأَمْوَالِ، وَيَجِبُ عَلَيْكَ مُسَاعَدَتِي لِإِبْقَائِهِ فِي هونج كونج حَتَّى يُمْكِنَنِي إِلْقَاءُ الْقَبْضِ عَلَيْهِ.»

سَقَطَ فَمُ باسبارتو مَشْدُوهًا: «لِصٌّ! إِنَّهُ لَيْسَ لِصًّا! بَلْ إِنَّهُ أَشْرَفُ الرِّجَالِ!»

أَخْبَرَ فيكس باسبارتو أَنَّ مُوَاصَفَاتِ اللِّصِّ تَتَطَابَقُ تَمَامًا مَعَ مُوَاصَفَاتِ فيلياس فوج؛ فَاللِّصُّ مِنَ النُّبَلَاءِ مِثْلَ فيلياس فوج، وَكَذَلِكَ لَدَيْهِ أَمْوَالٌ طَائِلَةٌ مِثْلَ فيلياس، كَمَا أَنَّهُ فِي نَفْسِ الطُّوْلِ وَالْبِنْيَةِ، وَكَافَّةِ الْأَحْدَاثِ أَكَّدَتْ هَذَا.

ذَكَّرَ فيكس الْخَادِمَ بِمَعْرِفَتِهِ الْمَحْدُودَةِ بِرَئِيسِهِ؛ إِذْ إِنَّهُ — رَغْمَ كُلِّ شَيْءٍ — بَدَأَ الْعَمَلَ لَدَيْهِ فِي يَوْمِ مُغَادَرَتِهِمْ، ثُمَّ سَأَلَهُ فيكس مُجَدَّدًا: «الْآنَ، هَلْ سَتُسَاعِدُنِي فِي إِبْقَائِهِ فِي هونج كونج؟»

– «أَنَا أَرْفُضُ، فَسَيِّدِي رَجُلٌ نَبِيلٌ وَمُحْتَرَمٌ، وَلَمْ يَرْتَكِبْ تِلْكَ الْجَرِيمَةَ، أَنَا لَا أُصَدِّقُكَ وَسَأَرْحَلُ الْآنَ.»

– «أَتَمَنَّى أَنْ تُغَيِّرَ رَأْيَكَ.» وَبَيْنَمَا كَانَ باسبارتو يَهُمُّ بِالْمُغَادَرَةِ، أَوْمَأَ فيكس بِرَأْسِهِ لِلرَّجُلِ فِي الزَّاوِيَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَفَجْأَةً تَسَلَّلَ الرَّجُلُ خَلْفَ باسبارتو وَضَرَبَهُ عَلَى رَأْسِهِ، فَسَقَطَ باسبارتو أَرْضًا! ثُمَّ أَوْمَأَ الرَّجُلُ لِفيكس قَبْلَ أَنْ يُسْرِعَ إِلَى الْخَارِجِ حَتَّى لَا يَرَاهُ أَحَدٌ.

وَقَالَ فيكس لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَحْمِلُ الْخَادِمَ وَيَضَعُهُ عَلَى مَقْعَدٍ وَثِيرٍ: «أَخِيرًا! لَنْ يَعْرِفَ السَّيِّدُ فوج أَنَّ الْبَاخِرَةَ سَتُغَادِرُ مُبَكِّرًا، وَسَيَكُونُ مُجْبَرًا عَلَى الْبَقَاءِ فِي هونج كونج لِأُسْبُوعٍ آخَرَ!»

وَبِهَذَا تَرَكَ فيكس باسبارتو الْمِسْكِينَ فِي الْمَطْعَمِ وَهُوَ فَاقِدُ الْوَعْيِ.

كَانَ فيلياس وَعودا يَتَجَوَّلَانِ فِي هونج كونج لِشِرَاءِ مُؤَنٍ لِلرِّحْلَةِ الْبَحْرِيَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي تَنْتَظِرُهُمَا، وَلَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْهُمَا يَعْلَمُ أَنَّ «كارناتيك» سَتُغَادِرُ فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ. وَقَضَيَا الْيَوْمَ فِي التَّسَوُّقِ وَتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ ثُمَّ عَادَا إِلَى غُرْفَتَيْهِمَا لِلنَّوْمِ.

وَلَمْ يُلَاحِظَا غِيَابَ باسبارتو حَتَّى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي. ذَهَبَ فيلياس وَعودا إِلَى رَصِيفِ الْمِينَاءِ وَحْدَهُمَا، وَكَانَا يَأْمُلَانِ فِي الْعُثُورِ عَلَى الْخَادِمِ هُنَاكَ، لَكِنَّهُمَا عِنْدَمَا وَصَلَا،

لَمْ يَجِدَا سِوَى فيكس! قَالَ فيكس: «أَلَمْ تَكُنْ مُسَافِرًا عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «رانجون»؟ أَنَا صَدِيقُ خَادِمِكَ، كُنْتُ آمُلُ أَنْ أَجِدَهُ هُنَا.»

أَجَابَ فيلياس: «نَعَمْ، كُنْتُ عَلَى مَتْنِ «رانجون»، وَنَحْنُ الاِثْنَانِ أَيْضًا نَبْحَثُ عَنْ باسبارتو، إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ إِلَى الْفُنْدُقِ لَيْلَةَ أَمْسِ.»

قَالَ فيكس: «هَذَا غَرِيبٌ حَقًّا!»

وَافَقَتْهُ عودا قَائِلَةً: «نَعَمْ، إِنَّهُ كَذَلِكَ، هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَبَقَنَا عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك»؟»

قَالَ فيكس: «أَخْشَى أَنَّ لَدَيَّ بَعْضَ الْأَخْبَارِ السَّيِّئَةِ؛ فَقَدِ انْتَهَى إِصْلَاحُ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك» أَمْسِ وَغَادَرَتْ مُبَكِّرًا. لَقَدْ فَاتَتْكُمُ الْبَاخِرَةُ، وَلَنْ تُبْحِرَ بَاخِرَةٌ أُخْرَى إِلَى يوكوهاما قَبْلَ أُسْبُوعٍ.»

فِي الْبِدَايَةِ نَظَرَ فيلياس إِلَى فيكس ثُمَّ إِلَى الْمِينَاءِ حَوْلَهُ وَقَالَ بِهُدُوءٍ: «حَسَنًا، يَجِبُ عَلَيْنَا فَقَطْ أَنْ نَأْخُذَ مَرْكَبًا آخَرَ. يَا سَيِّدُ فيكس، هَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَظَلَّ مَعَ الْآنِسَةِ عودا لِلَحْظَةٍ؟»

أَوْمَأَ فيكس بِبُطْءٍ ثُمَّ رَاقَبَ فيلياس وَهُوَ يَسِيرُ بِسُرْعَةٍ مُبْتَعِدًا، وَتَسَلَّلَ الْقَلَقُ إِلَى نَفْسِهِ وَهُوَ يُفَكِّرُ: «مَرْكَبٌ آخَرُ. لَا يُمْكِنُهُ الْعُثُورُ عَلَى مَرْكَبٍ آخَرَ.»

وَامْتَدَّتِ اللَّحْظَةُ لِتُصْبِحَ دَقِيقَةً ثُمَّ سَاعَةً، ثُمَّ مَرَّتْ سَاعَةٌ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَعُودَ فيلياس أَخِيرًا وَيَقُولَ لَهُمَا: «لَقَدْ فَعَلْتُهَا! لَقَدْ عَثَرْتُ عَلَى مَرْكَبٍ آخَرَ سَيَنْقُلُنَا إِلَى شانغهاي، وَمِنْ هُنَاكَ يُمْكِنُنَا اللِّحَاقُ بِالسَّفِينَةِ «كارناتيك» وَالذَّهَابُ إِلَى سان فرانسيسكو!»

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى فيكس قَائِلًا: «أَنَا مُتَأَكِّدٌ مِنْ أَنَّ هُنَاكَ مُتَّسَعًا لَكَ، إِذَا كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ تَنْضَمَّ إِلَيْنَا.»

قَالَ فيكس — وَهُوَ يَتَصَنَّعُ ابْتِسَامَةً زَائِفَةً: «شُكْرًا لَكَ يَا سَيِّدِي.»

قَالَ فيلياس: «حَسَنًا، سَنُغَادِرُ فِي غُضُونِ نِصْفِ سَاعَةٍ.»

قَالَتْ عودا: «وَلَكِنَّ باسبارتو، مَاذَا عَنْهُ؟ يَجِبُ أَنْ نَعْثُرَ عَلَيْهِ.»

قَالَ فيلياس: «سَنَفْعَلُ مَا بِوُسْعِنَا قَبْلَ أَنْ نُغَادِرَ يَا عودا.»

هُرِعَ فيكس لِيَحْزِمَ أَمْتِعَتَهُ حَتَّى يُغَادِرَ مَعَهُمَا، وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، ذَهَبَ فيلياس وعودا إِلَى قِسْمِ الشُّرْطَةِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلْعُثُورِ عَلَى باسبارتو، وَتَرَكَا مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ مَعَ الشُّرْطَةِ لِيَتَمَكَّنُوا مِنَ الْبَحْثِ عَنْ باسبارتو.

وَكَانَ الْمَرْكَبُ الَّذِي اسْتَأْجَرَهُ فيلياس يُدْعَى «تانكادير»، وَقُبْطَانُهُ يُدْعَى جون بانسبي، وَطَاقَمُهُ مُكَوَّنٌ مِنْ أَرْبَعَةِ بَحَّارَةٍ أَشِدَّاءَ. وَعِنْدَمَا صَعِدَ عودا وفيلياس عَلَى مَتْنِ الْمَرْكَبِ، انْدَهَشَا لِأَنَّ فيكس قَدْ سَبَقَهُمَا إِلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ بِالْفِعْلِ.

وَقَالَ فيلياس: «أَعْتَذِرُ عَنْ صِغَرِ حَجْمِ الْكَبَائِنِ، وَلَكِنْ عَلَى الْأَقَلِّ لَيْسَ عَلَيْنَا الِانْتِظَارُ أُسْبُوعًا آخَرَ لِمُتَابَعَةِ الرِّحْلَةِ!»

انْحَنَى فيكس وَلَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ، وَفَكَّرَ قَائِلًا: «إِنَّهُ رَجُلٌ نَبِيلٌ، عَلَيَّ الِاعْتِرَافُ بِذَلِكَ.»

كَانَ ذَلِكَ فِي بِدَايَةِ شَهْرِ نُوفَمْبِرَ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ الْمُسَافِرِينَ قَدْ بَدَءُوا رِحْلَتَهُمْ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا. وَكَانَتْ بِحَارُ الصِّينِ هَائِجَةً وَالرِّيَاحُ قَوِيَّةً، وَكَانَتْ «تانكادير» تَشُقُّ طَرِيقَهَا بِسُرْعَةٍ، وَكَانَ الْقُبْطَانُ بانسبي يَعْلَمُ أَنَّ لَدَيْهِ سَفِينَةً قَوِيَّةً، وَيَبْذُلُ قُصَارَى جُهْدِهِ لِجَعْلِهَا تَتَحَرَّكُ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ مُمْكِنَةٍ لَهَا.

وَقَفَ فيلياس فوج عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ يُرَاقِبُ الْأَمْوَاجَ الْعَاتِيَةَ الَّتِي تَزْدَادُ ارْتِفَاعًا، وَكَانَ الْمَرْكَبُ يَهْتَزُّ بِشِدَّةٍ إِلَى الْأَمَامِ وَالْخَلْفِ، وَلَكِنَّ فيلياس لَمْ يَسْقُطْ قَطُّ، فَكَانَتْ لَدَيْهِ قُدْرَةٌ هَائِلَةٌ عَلَى السَّيْرِ عَلَى سَطْحِ الْمَرْكَبِ، وَكَانَتِ الْأَشْرِعَةُ الْبَيْضَاءُ الضَّخْمَةُ تَخْفِقُ فِي السَّمَاءِ. وَجَلَسَتْ عودا عَلَى كُرْسِيٍّ وَتَشَبَّثَتْ خَوْفًا عَلَى حَيَاتِهَا.

أَمَّا فيكس، فَقَدْ قَبَعَ فِي الْكَابِينَةِ، وَكَانَ حَزِينًا لِأَنَّ عَلَيْهِ اللِّحَاقَ بِفيلياس إِلَى أَمْرِيكَا، وَلَكِنَّهُ قَدْ قَطَعَ وَعْدًا عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَسْلِمَ أَبَدًا، بَلْ سَيَقُومُ بِوَاجِبِهِ لِلتَّأَكُّدِ مِنَ الْقَبْضِ عَلَى اللِّصِّ. وَبِالرَّغْمِ مِنَ الْمُعَامَلَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي تَلَقَّاهَا فيكس عَلَى مَتْنِ الْقَارِبِ كَانَ عَلَيْهِ التَّرْكِيزُ عَلَى وَاجِبِهِ؛ فَلَمْ يَكُنْ سُلُوكُ فيلياس النَّبِيلُ الْمِثَالِيُّ ذَا أَهَمِّيَّةٍ، فَهُوَ مُجْرِمٌ، وَكَانَتْ مَهَمَّةُ فيكس هِيَ الْقَبْضَ عَلَيْهِ. وَمَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ سَعِيدًا حِيَالَ رَفْضِ فيلياس أَنْ يَأْخُذَ أَيَّ أَمْوَالٍ مِنْهُ، سَوَاءٌ مُقَابِلَ الطَّعَامِ أَوْ رِحْلَةِ السَّفِينَةِ. وَعِنْدَمَا سَأَلَ فيكس عَنِ السَّبَبِ، أَجَابَ فيلياس بِوُضُوحٍ وَسُرْعَةٍ أَنَّهُ أَمْرٌ لَا يَسْتَحِقُّ الْحَدِيثَ عَنْهُ، وَأَنَّ الرِّحْلَةَ جُزْءٌ مِنْ «نَفَقَاتِهِ الْعَامَّةِ».

فَكَّرَ فيكس: «إِنَّهُ بِالطَّبْعِ يَمْلِكُ مَالًا لِأَنَّهُ لِصٌّ!»

فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ، قَطَعَتِ السَّفِينَةُ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ مِيلٍ، وَكَانَ فيلياس سَعِيدًا بِهَذَا التَّقَدُّمِ، كَمَا ارْتَفَعَتْ مَعْنَوِيَّاتُ الْقُبْطَانِ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُمْ سَيَصِلُونَ إِلَى شانغهاي فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لِيَلْحَقَ فيلياس بِالْبَاخِرَةِ «كارناتيك».

لَكِنْ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ تَغَيَّرَ كُلُّ شَيْءٍ؛ إِذْ صَاحَبَ فَجْرَ ذَلِكَ الْيَوْمِ سَمَاءٌ مُظْلِمَةٌ وَمُلَبَّدَةٌ بِالْغُيُومِ.

وَقَفَ الْقُبْطَانُ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ بِجَانِبِ فيلياس، وَتَأَمَّلَا مَعًا السُّحُبَ الْكَثِيفَةَ الَّتِي تَتَكَوَّنُ خَلْفَ الْقَارِبِ.

قَالَ الْقُبْطَانُ بانسبي: «أَعْتَقِدُ أَنَّنَا سَنُوَاجِهُ عَاصِفَةً عَاتِيَةً يَا سَيِّدِي.»

قَالَ فيلياس: «أَنَا أَيْضًا أَعْتَقِدُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الرِّيَاحَ تَهُبُّ فِي الِاتِّجَاهِ الصَّحِيحِ لِمُسَاعَدَتِنَا فِي الْمُضِيِّ قُدُمًا.»

نَظَرَ الْقُبْطَانُ إِلَى رَاكِبِهِ، وَقَالَ: «إِذَنْ، هَلْ تَرْغَبُ فِي الِاسْتِمْرَارِ فِي الْإِبْحَارِ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ؟»

قَالَ فيلياس: «بِالطَّبْعِ!»

تَفَحَّصَ الْقُبْطَانُ فيلياس فوج بِنَظْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَلَاحَظَ بِهُدُوءٍ أَنَّهُ كَانَ جَادًّا فِعْلًا.

أَخَذَ الْمَرْكَبُ يَتَمَايَلُ وَيَتَرَنَّحُ، لَكِنَّهُ حَافَظَ عَلَى مَسَارِهِ إِلَى شانغهاي، رَغْمَ أَنَّ إِبْطَاءَ الْمَرْكَبِ وَالتَّوَقُّفَ فِي أَقْرَبِ مِينَاءٍ كَانَ أَكْثَرَ أَمَانًا. تَحَوَّلَ النَّهَارُ إِلَى لَيْلٍ، وَاللَّيْلُ إِلَى نَهَارٍ، وَالْعَاصِفَةُ تَثُورُ مِنْ حَوْلِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ قَوَارِبَ أُخْرَى عَلَى مَرْمَى الْبَصَرِ، فَقَدْ كَانَتْ «تانكادير» تُبْحِرُ وَحْدَهَا.

وَبِحُلُولِ ظَهِيرَةِ الْيَوْمِ الثَّانِي، هَدَأَتِ الْعَاصِفَةُ أَخِيرًا، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِمْ سِوَى سِتِّ سَاعَاتٍ فَقَطْ لِلْوُصُولِ إِلَى وِجْهَتِهِمْ أَوِ الْمُخَاطَرَةِ بِعَدَمِ اللِّحَاقِ بِالْبَاخِرَةِ. وَفَجْأَةً اخْتَفَتِ الرِّيَاحُ تَمَامًا! وَلَمْ يَعْرِفْ فيلياس وَمُرَافِقُوهُ كَيْفَ اسْتَطَاعَ الْقُبْطَانُ الْمَاهِرُ وَطَاقَمُ عَمَلِهِ الْحِفَاظَ عَلَى سُرْعَةِ الْمَرْكَبِ، لَكِنَّهُمْ نَجَحُوا فِي الْحِفَاظِ عَلَى سُرْعَةِ الْمَرْكَبِ وَهُوَ يَشُقُّ طَرِيقَهُ فِي الْبَحْرِ.

كَانُوا عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ فَقَطْ مِنْ شانغهاي عِنْدَمَا رَأَى فيلياس قُمْعًا طَوِيلًا أَسْوَدَ اللَّوْنِ مِنَ الْبُخَارِ أَمَامَهُمْ. إِنَّهَا «كارناتيك» تُغَادِرُ إِلَى «يوكوهاما»، حَيْثُ كَانَتْ سَتَتَوَقَّفُ قَبْلَ تَوَجُّهِهَا إِلَى «سان فرانسيسكو»!

قَالَ فيلياس فوج: «أَرْسِلْ لَهَا إِشَارَةً!»

كَانَ عَلَى مَتْنِ «تانكادير» مِدْفَعٌ نُحَاسِيٌّ صَغِيرٌ، وَكَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ اسْتِخْدَامُهُ فِي نِدَاءِ الِاسْتِغَاثَةِ، فَلَقَّمَهُ الْبَحَّارَةُ الْقَذِيفَةَ وَأَشْعَلُوا قَاعِدَتَهُ لِإِطْلَاقِهِ.

صَاحَ فيلياس: «أَطْلِقْ!» دَوَّى إِطْلَاقُ الْمِدْفَعِ فِي الْهَوَاءِ، وَقَدْ أَثَارَ دَوِيُّهُ انْتِبَاهَ الْبَاخِرَةِ الَّتِي غَيَّرَتْ مَسَارَهَا لِمُقَابَلَةِ «تانكادير». وهكذا اسْتَطَاعَ فيلياس فوج وعودا الصُّعُودَ عَلَى مَتْنِ «كارناتيك» وَالْعَوْدَةَ إِلَى الْمَسَارِ الصَّحِيحِ! وَلَمْ يَسْتَطِعْ فيكس تَصْدِيقَ حُسْنِ حَظِّهِمَا.

الفصل الثاني عشر

باسبارتو يُوَاصِلُ الرِّحْلَةَ وَحِيدًا، وَيَنْضَمُّ لِفَرِيقِ «لونج نوزِز»

غَادَرَتِ الْبَاخِرَةُ «كارناتيك» هونج كونج فِي مَوْعِدِهَا الْمُحَدَّدِ، وَلَكِنْ بِغُرْفَتَيْنِ فَارِغَتَيْنِ، إِنَّهُمَا غُرْفَتَا فيلياس فوج وعودا. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، تَعَثَّرَ رَاكِبٌ ذُو عَيْنَيْنِ غَائِمَتَيْنِ وَشَعْرٍ أَشْعَثَ خَارِجَ كَابِينَتِهِ وَتَلَمَّسَ طَرِيقَهُ إِلَى سَطْحِ الْبَاخِرَةِ؛ إِنَّهُ باسبارتو!

كَانَ باسبارتو قَدِ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ لَا يَزَالُ يُعَانِي دُوَارًا مِنْ أَثَرِ الضَّرْبَةِ عَلَى رَأْسِهِ بَعْدَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ مِنْ رَحِيلِ فيكس فِي ذَلِكَ الْمَطْعَمِ الْكَئِيبِ، وَصَاحَ: «كارناتيك! كارناتيك!» كَأَنَّمَا أَدْرَكَ أَيْنَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ، وَبِالْكَادِ اسْتَطَاعَ الْوُقُوفَ وَسَحَبَ نَفْسَهُ وَتَعَثَّرَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْبَاخِرَةِ، ثُمَّ سَقَطَ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ وَهِيَ عَلَى وَشْكِ الرَّحِيلِ مِنَ الْمِينَاءِ.

فَأَشْفَقَ عَلَيْهِ اثْنَانِ مِنْ طَاقَمِ الْبَاخِرَةِ وَحَمَلَاهُ إِلَى كَابِينَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَيْقِظْ باسبارتو إِلَّا فِي مُنْتَصَفِ الْيَوْمِ التَّالِي.

كَانَ يُفَكِّرُ قَلِقًا: «مَاذَا سَيَقُولُ السَّيِّدُ فوج عَنِّي عِنْدَمَا يَرَانِي هَكَذَا؟ مَا الَّذِي حَدَثَ لِي؟ عَلَى الْأَقَلِّ تَمَكَّنْتُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْبَاخِرَةِ.»

نَهَضَ باسبارتو وَبَدَأَ يَسْتَكْشِفُ الْبَاخِرَةَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرَ أَيَّ شَخْصٍ يَبْدُو مِثْلَ فيلياس فوج أَوْ عودا، فَذَهَبَ إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَامِ لِيَرَى مَا إِذَا كَانَ أَيٌّ مِنْهُمَا هُنَاكَ، لَكِنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا هُنَاكَ.

وَأَخِيرًا، سَأَلَ باسبارتو مُسَافِرًا آخَرَ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ إِذَا كَانَ يَعْرِفُ أَيْنَ يُمْكِنُهُ الْعُثُورُ عَلَى فيلياس فوج.

فَأَجَابَهُ الْمُسَافِرُ: «لَا يُوجَدُ أَحَدٌ بِهَذَا الِاسْمِ عَلَى ظَهْرِ الْبَاخِرَةِ.»

سَأَلَ باسبارتو: «هَلْ أَنَا عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك»؟»

– «نَعَمْ.»

– «فِي الطَّرِيقِ إِلَى «يوكوهاما»؟»

– «نَعَمْ.»

سَقَطَ باسبارتو عَلَى مَقْعَدٍ وَكَأَنَّمَا أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ، وَبَدَأَ يَسْتَرْجِعُ كُلَّ الْأَحْدَاثِ! لَا بُدَّ وَأَنَّ السَّيِّدَ قَدْ فَاتَتْهُ الْبَاخِرَةُ. كَانَ باسبارتو الْآنَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْيَابَانِ وَهُوَ لَا يَمْلِكُ نُقُودًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَلَكِنْ كَانَتِ الرِّحْلَةُ سَتَسْتَغْرِقُ خَمْسَةً إِلَى سِتَّةِ أَيَّامٍ؛ لِذَا فَعَلَى الْأَقَلِّ سَيَكُونُ أَمَامَهُ بَعْضُ الْوَقْتِ لِيُفَكِّرَ مَاذَا سَيَفْعَلُ.

عِنْدَمَا رَسَتِ السَّفِينَةُ فِي يوكوهاما، نَزَلَ باسبارتو بِبُطْءٍ مِنْ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ إِلَى الشَّاطِئِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ شَيْءٌ يُرْشِدُهُ سِوَى قَدَرِهِ وَهُوَ يَجُوبُ شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ الْيَابَانِيَّةِ. فِي الْبِدَايَةِ، تَفَقَّدَ الْجُزْءَ الْأُورُوبِّيَ مِنَ الْمَدِينَةِ حَيْثُ وَجَدَ الْعَدِيدَ مِنَ التُّجَّارِ يَبِيعُونَ بَضَائِعَهُمْ. ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْقُنْصُلِيَّتَيْنِ الْفَرَنْسِيَّةِ وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ لِيَرَى إِنْ كَانَ لَدَيْهِمَا أَيُّ رَسَائِلَ مِنْ فيلياس فوج، وَلَكِنْ لَمْ يُحَالِفْهُ الْحَظُّ، فَمَضَى قُدُمًا فِي اسْتِكْشَافِ الْمَدِينَةِ.

وَسَأَلَ باسبارتو نَفْسَهُ وَهُوَ يَتَجَوَّلُ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ الْمُزْدَحِمَةِ: «مَاذَا سَأَفْعَلُ لِلْحُصُولِ عَلَى الطَّعَامِ؟» وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُ نَوَافِذَ الْمَحَلَّاتِ الثَّرِيَّةِ وَالْعَجِيبَةِ، كَمَا رَأَى مَقَاهِيَ وَتَمَنَّى لَوْ كَانَ لَدَيْهِ الْمَالُ لِيَجْلِسَ فِي إِحْدَاهَا. ظَلَّ باسبارتو جَائِعًا لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ نَهَارِ وَلَيْلِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ وَهُوَ يَتَجَوَّلُ فِي أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ، ظَلَّ يَمْشِي وَيَمْشِي، وَلَمْ يَحْصُلْ عَلَى قِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ قَطُّ، حَتَّى عِنْدَمَا حَلَّ الْمَسَاءُ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، كَانَ باسبارتو الْمِسْكِينُ يُدْرِكُ أَنَّهُ يَحْتَاجُ لِيَأْكُلَ قَرِيبًا. كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَبِيعَ سَاعَتَهُ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ عَزِيزَةً جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لَهُ، وَلَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِهَا. وَبَعْدَ الْكَثِيرِ مِنَ التَّفْكِيرِ، قَرَّرَ أَنْ يُحَاوِلَ الْغِنَاءَ مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَى الطَّعَامِ.

ثُمَّ فَكَّرَ: «لَكِنَّنِي مُتَأَنِّقٌ بِدَرَجَةٍ لَا تُنَاسِبُ الْغِنَاءَ فِي الشَّارِعِ. نَعَمْ، سَوْفَ أُقَايِضُ مَلَابِسِي بِمَلَابِسَ ذَاتِ طَابَعٍ يَابَانِيٍّ.»

خَرَجَ باسبارتو مِنْ عِنْدِ تَاجِرِ الْمَلَابِسِ بِبَعْضِ الْقِطَعِ الْفِضِّيَّةِ فِي يَدِهِ وَمَلَابِسَ يَابَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، فَكَانَ يَرْتَدِي ثَوْبًا طَوِيلًا وَعِمَامَةً ذَاتَ جَانِبٍ وَاحِدٍ.

وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ: «يُمْكِنُنِي التَّظَاهُرُ بِأَنَّنِي فِي مِهْرَجَانٍ!»

دَخَلَ باسبارتو فِي أَوَّلِ مَقْهًى قَابَلَهُ، وَطَلَبَ بَعْضًا مِنَ الْأُرْزِ وَالدَّجَاجِ فَوْرَ جُلُوسِهِ، وَالْتَهَمَ طَعَامَهُ بِسُرْعَةٍ شَدِيدَةٍ. وَأَثْنَاءَ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ فَكَّرَ باسبارتو أَنَّهُ يُمْكِنُهُ الْعُثُورُ عَلَى وَظِيفَةٍ عَلَى مَتْنِ بَاخِرَةٍ مُتَّجِهَةٍ إِلَى أَمْرِيكَا بَدَلًا مِنَ الْغِنَاءِ مِنْ أَجْلِ الطَّعَامِ أَوِ الْمَالِ.

– «عَلَى الْأَقَلِّ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ سَيَكُونُ لَدَيَّ أَمَلٌ فِي الْعُثُورِ عَلَى سَيِّدِي.»

عَادَ باسبارتو إِلَى الْمَرْسَى وَهُوَ يُفَكِّرُ: «كَيْفَ سَأَجِدُ وَظِيفَةً؟ مَنْ سَيَتْرُكُنِي أَصْعَدُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ بِهَذِهِ الْمَلَابِسِ؟» كَانَتْ هَذِهِ الْأَسْئِلَةُ وَغَيْرُهَا تَدُورُ فِي ذِهْنِهِ عِنْدَمَا صَادَفَ مُهَرِّجًا يَحْمِلُ لَوْحَةً ضَخْمَةً كُتِبَ عَلَيْهَا:

الْفِرْقَةُ الْبَهْلَوَانِيَّةُ
يُقَدِّمُهَا
الْمُحْتَرَمُ
ويليام باتولكار
لَا تُفَوِّتُوا آخِرَ
عَرْضٍ لِفِرْقَةِ
«لونج نوزز» «لونج نوزز»
سَنَتَّجِهُ إِلَى
«أَمْرِيكَا»!

قَالَ باسبارتو: «أَمْرِيكَا! هَذَا بِالضَّبْطِ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ!»

لَحِقَ باسبارتو بِالْمُهَرِّجِ حَتَّى وَسْطِ الْمَدِينَةِ، وَبَعْدَ خَمْسِينَ دَقِيقَةً، كَانَ باسبارتو يَقِفُ أَمَامَ كَابِينَةٍ كَبِيرَةٍ مُزَيَّنَةٍ بِالشَّرَائِطِ وَمَرْسُومٍ عَلَيْهَا بَهْلَوَانَاتٌ. دَخَلَ باسبارتو إِلَى الْكَابِينَةِ وَسَأَلَ عَنِ السَّيِّدِ باتولكار، الَّذِي سُرْعَانَ مَا خَرَجَ لِيُقَابِلَهُ.

سَأَلَ باتولكار: «مَاذَا تُرِيدُ؟»

فَأَجَابَهُ باسبارتو: «أَنَا لَاعِبُ جُمْبَازٍ وَمُطْرِبٌ وَمُمَثِّلٌ يَا سَيِّدِي، فَهَلْ تَحْتَاجُ إِلَى أَيٍّ مِنْ مَهَارَاتِي؟»

سَأَلَهُ السَّيِّدُ باتولكار: «هَلْ أَنْتَ فَرَنْسِيٌّ؟»

قَالَ باسبارتو: «نَعَمْ، أَنَا مِنْ بَارِيسَ، وَلَكِنَّنِي أَعِيشُ فِي إِنْجِلْتِرَا مُنْذُ سَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ، وَالْآنَ، أَرْغَبُ فِي زِيَارَةِ أَمْرِيكَا.»

– «هَلْ أَنْتَ قَوِيُّ الْبِنْيَةِ؟ هَلْ تَسْتَطِيعُ الْغِنَاءَ وَأَنْتَ تَقِفُ عَلَى رَأْسِكَ، وَعَلَى قَدَمِكَ الْيُمْنَى نَحْلَةٌ دَوَّارَةٌ وَعَلَى قَدَمِكَ الْيُسْرَى سَيْفٌ مُتَوَازِنٌ؟»

أَجَابَ باسبارتو: «هَاهْ! أَعْتَقِدُ ذَلِكَ!» وَتَذَكَّرَ كَيْفَ كَانَ رَشِيقًا فِي صِغَرِهِ، لَقَدْ كَانَ بَهْلَوَانًا!

– «حَسَنًا، هَذَا جَيِّدٌ بِالنِّسْبَةِ لِي، تَمَّ تَعْيِينُكَ!» ثُمَّ نَظَرَ إِلَى باسبارتو وَقَالَ: «وَلَكِنْ عَلَيْكَ الْعُثُورُ عَلَى مَلَابِسَ نِصْفِ لَائِقَةٍ لِتَرْتَدِيَهَا؛ فَالزِّيُّ الَّذِي تَلْبَسُهُ يَبْدُو سَخِيفًا.»

شَعَرَ باسبارتو بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ لِأَنَّهُ نَجَحَ أَخِيرًا فِي الْحُصُولِ عَلَى وَظِيفَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ خَادِمَ السَّيِّدَ فوج، فَعَلَى الْأَقَلِّ أَصْبَحَ فِي إِمْكَانِهِ الْوُصُولُ إِلَى أَمْرِيكَا وَالْعُثُورُ عَلَيْهِ هُنَاكَ. لَقَدْ حُسِمَ الْأَمْرُ؛ فَسَيَنْضَمُّ إِلَى فَرِيقِ «لونج نوزز» الَّذِينَ يَقُومُونَ بِعَرْضٍ خَاصٍّ دَاخِلَ الْفِرْقَةِ بِتَكْوِينِ هَرَمٍ بَشَرِيٍّ، وَكَانَ هَذَا الْعَرْضُ الْمُذْهِلُ هُوَ الْفَصْلُ الْخِتَامِيُّ فِي كُلِّ عَرْضٍ.

بَعْدَ الظَّهِيرَةِ، بَدَأَتِ الْحُشُودُ فِي التَّجَمُّعِ؛ فَاكْتَظَّتِ الْمُدَرَّجَاتُ بِأُنَاسٍ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَشْكَالِ وَالْأَحْجَامِ وَالْأَلْوَانِ. وَحَضَرَ كَذَلِكَ الْمُوسِيقِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْزِفُونَ بِالْأَجْرَاسِ الْقُرْصِيَّةِ وَالطُّبُولِ الْأَفْرِيقِيَّةِ وَالنَّايِ وَالطُّبُولِ وَالدُّفُوفِ.

قَفَزَ الْمُهَرِّجُونَ لِبَدْءِ الْعَرْضِ، وَقَامُوا بِتَنْفِيذِ حَرَكَاتٍ مُبْهِرَةٍ مِنَ التَّدَحْرُجِ وَالْقَفْزِ وَالِانْدِفَاعِ؛ مِمَّا أَسْعَدَ الْحَشْدَ كَثِيرًا. كَانَ هُنَاكَ بَهْلَوَانٌ يَرْمِي الشُّمُوعَ مُشْتَعِلَةً فِي الْهَوَاءِ! وَكَانَ يُطْفِئُهَا عِنْدَمَا تَمُرُّ بِجَانِبِ فَمِهِ وَيُضِيئُهَا مَرَّةً أُخْرَى دُونَ أَنْ يَسْقُطَ أَيٌّ مِنْهَا، وَمَشَى السَّائِرُونَ عَلَى الْحِبَالِ عَلَى سِلْكٍ رَفِيعٍ عَبْرَ الْمَسْرَحِ، وَكَانُوا يَدُورُونَ وَيَقْفِزُونَ بِدُونِ أَنْ يَسْقُطُوا.

وَرَغْمَ كُلِّ ذَلِكَ، كَانَتِ الْأَنْظَارُ مُتَّجِهَةً إِلَى عَرْضِ «لونج نوزز»، فَكَانُوا يَرْتَدُونَ مِثْلَ الْإِلَهِ الْقَدِيمِ «تنجو» الَّذِي كَانَ لَدَيْهِ أَنْفٌ طَوِيلٌ لِلْغَايَةِ، كَمَا كَانُوا يَضَعُونَ أَجْنِحَةً رَائِعَةً، وَكَانَتْ أُنُوفُهُمْ مَصْنُوعَةً مِنَ الْبَامْبُو وَطُولُهَا خَمْسَةٌ وَسِتَّةٌ وَحَتَّى عَشْرِ أَقْدَامٍ! لَكِنْ كَانَ بَعْضُ هَذِهِ الْأُنُوفِ مُسْتَقِيمًا وَالْآخَرُ مَعْقُوفًا وَبَعْضُهَا بِهِ بُثُورٌ مُضْحِكَةٌ. تَدَحْرَجَ الْمُهَرِّجُونَ وَتَمَايَلُوا وَأَدَّوْا حَرَكَاتٍ بَهْلَوَانِيَّةً وَهُمْ يَضَعُونَ تِلْكَ الْأُنُوفَ الطَّوِيلَةَ عَلَى وُجُوهِهِمْ، كَانَ عَرْضًا لَا يُصَدَّقُ!

أَعْلَنَ السَّيِّدُ باتولكار عَنْ آخِرِ الْعُرُوضِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ؛ أَلَا وَهُوَ عَرْضُ الْهَرَمِ الْبَشَرِيِّ، وَلَكِنَّ مُؤَدِّي الْعَرْضِ لَنْ يَتَسَلَّقُوا عَلَى ظُهُورِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ، وَإِنَّمَا سَيُحَافِظُونَ عَلَى اتِّزَانِهِمْ عَلَى أُنُوفِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ! وَوَقَفَ باسبارتو فِي وَسْطِ الْحَلْبَةِ وَعَلَى وَجْهِهِ أَنْفٌ طُولُهُ سِتُّ أَقْدَامٍ، وَعَلَى ظَهْرِهِ أَجْنِحَةٌ مُتَعَدِّدَةُ الْأَلْوَانِ.

فَكَّرَ باسبارتو وَهُوَ يَتَسَلَّقُ أَعْلَى أَحَدِ الْأُنُوفِ وَيَسْعَى جَاهِدًا لِلْحِفَاظِ عَلَى اتِّزَانِهِ: «عَلَى الْأَقَلِّ سَأَحْصُلُ عَلَى عَشَاءِ اللَّيْلَةِ.»

وَلَكِنْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَبِنَفْسِ السُّرْعَةِ الَّتِي تَشَكَّلَ فِيهَا الْهَرَمُ، انْهَارَ الْجَمِيعُ أَرْضًا وَتَحَطَّمَتْ كُلُّ الْأُنُوفِ حَوْلَهُمْ.

وَصَاحَ باسبارتو فِي تَعَجُّبٍ: «سَيِّدِي! أَنْتَ هُنَا!» كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا! كَانَ فيلياس فوج يَجْلِسُ بَيْنَ الْجُمْهُورِ، فَقَدْ مَرَّ هُوَ وعودا بِلَافِتَاتِ الْعَرْضِ وَهُمَا يَسْتَكْشِفَانِ الْمَدِينَةَ وَقَرَّرَا الدُّخُولَ وَمُشَاهَدَةَ الْعَرْضِ.

فَقَالَ فيلياس: «هَلْ هَذَا أَنْتَ يَا باسبارتو؟»

– «نَعَمْ! أَنَا هُنَا! أَنَا هُنَا!»

فَقَالَ فيلياس: «حَسَنًا، هيَّا بِنَا إِلَى الْبَاخِرَةِ أَيُّهَا الشَّابُّ!»

غَادَرَ فيلياس وَعودا وَباسبارتو الْمَسْرَحَ مُتَّجِهِينَ إِلَى الْخَارِجِ، فَتَعَقَّبَهُمُ السَّيِّدُ باتولكار إِلَى الْخَارِجِ وَهُوَ يَصْرُخُ قَائِلًا إِنَّ باسبارتو قَدْ دَمَّرَ عَرْضَهُ! فَأَعْطَاهُ السَّيِّدُ فوج بِكَرَمٍ بَعْضَ النُّقُودِ لِإِصْلَاحِ مَا قَدْ تَلِفَ، وَشَقَّ الثَّلَاثَةُ طَرِيقَهُمْ إِلَى الْبَاخِرَةِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى أَمْرِيكَا. كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَطْ؛ لَقَدْ نَسِيَ باسبارتو أَنْ يَخْلَعَ أَنْفَهُ، فَظَلَّ يَضَعُ ذَلِكَ الْأَنْفَ وَالْأَجْنِحَةَ وَهُوَ يَصْعَدُ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ الَّتِي تَحْمِلُ اسْمَ «جنرال جرانت»!

الفصل الثالث عشر

السَّيِّدُ فوج وَفَرِيقُهُ يَعْبُرُونَ الْمُحِيطَ الْهَادِئَ

كَانَ مِنَ الْمُتَوَقَّعِ أَنْ تَسْتَغْرِقَ الرِّحْلَةُ مِنَ الْيَابَانِ إِلَى أَمْرِيكَا وَاحِدًا وَعِشْرِينَ يَوْمًا، حَيْثُ سَتُلْقِي السَّفِينَةُ مَرَاسِيَهَا فِي سان فرانسيسكو فِي الثَّانِي مِنْ دِيسَمْبِرَ، وَتَسْتَغْرِقُ الرِّحْلَةُ مِنْ سان فرانسيسكو إِلَى نيويورك تِسْعَةَ أَيَّامٍ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ أَمَامَ فيلياس فوج عَشَرَةُ أَيَّامٍ كَامِلَةٌ لِلْعَوْدَةِ إِلَى لَنْدَنَ قَبْلَ انْتِهَاءِ الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ، وَلَوْ كَانَتْ هُنَاكَ ذَرَّةُ قَلَقٍ تُخَالِجُ نَفْسَ فيلياس فوج، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَبْدُ عَلَى مَلَامِحِهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَبِحُلُولِ الْيَوْمِ التَّاسِعِ، كَانَ فيلياس فوج قَدْ سَافَرَ حَوْلَ نِصْفِ الْعَالَمِ بِالضَّبْطِ، وَعَلَيْهِ الْآنَ السَّفَرُ حَوْلَ النِّصْفِ الْآخَرِ، وَلَمْ يَتَبَقَّ أَمَامَهُ سِوَى ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ يَوْمًا فَقَطْ!

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، كَانَ الْمُحَقِّقُ فيكس قَدْ حَصَلَ أَخِيرًا عَلَى مُذَكِّرَةِ إِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَى فوج، وَالَّتِي كَانَتْ تَنْتَظِرُهُ عِنْدَ وُصُولِهِ إِلَى الْيَابَانِ. وَفِي الْوَاقِعِ، كَانَتِ الْمُذَكِّرَةُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك» الَّتِي كَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَتْنِهَا. وَبِالطَّبْعِ، أَصْبَحَتِ الْمُذَكِّرَةُ بِلَا فَائِدَةٍ الْآنَ؛ إِذْ إِنَّ فيلياس كَانَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى أَمْرِيكَا، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فوج فِي قَلْبِ الْأَرَاضِي الْبِرِيطَانِيَّةِ، فَإِنَّ فيكس لَيْسَ لَدَيْهِ السُّلْطَةُ لِإِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ.

اسْتَشَاطَ فيكس غَضَبًا: «حَسَنًا، سَتَظَلُّ هَذِهِ الْمُذَكِّرَةُ فَعَّالَةً فِي لَنْدَنَ، فَأَنَا عَلَى يَقِينٍ أَنَّ فيلياس فوج سَيُضْطَرُّ لِلْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِهِ فِي وَقْتٍ مَا.»

قَرَّرَ فيكس أَنْ يُلَاحِقَ فيلياس حَتَّى النِّهَايَةِ، وَلَكِنَّهُ تَقَوْقَعَ عَلَى نَفْسِهِ فِي كَابِينَتِهِ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «جنرال جرانت» حَتَّى لَا يَعْلَمُوا بِوُجُودِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يُقَابِلَ باسبارتو وَيُضْطَرَّ إِلَى تَبْرِيرِ وُجُودِهِ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ.

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْبَقَاءَ بِالدَّاخِلِ طَوَالَ الْوَقْتِ؛ فَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، شَعَرَ أَنَّهُ بِحَاجَةٍ إِلَى اسْتِنْشَاقِ بَعْضِ الْهَوَاءِ الْمُنْعِشِ. مَا الْخَطَأُ فِي ذَلِكَ؟! وَبِمُجَرَّدِ أَنْ وَطِئَتْ قَدَمَاهُ سَطْحَ السَّفِينَةِ، وَجَدَ باسبارتو الَّذِي اتَّجَهَ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً وَلَكَمَهُ فِي أَنْفِهِ فَطَرَحَهُ أَرْضًا.

وَسَأَلَهُ فيكس وَهُوَ يُمْسِكُ أَنْفَهُ: «هَلِ اكْتَفَيْتَ بِهَذَا؟»

أَجَابَهُ باسبارتو: «فِي الْوَقْتِ الرَّاهِنِ، نَعَمْ.»

قَالَ فيكس: «إِذَنْ مِنْ فَضْلِكَ، دَعْنِي أَتَحَدَّثُ إِلَيْكَ لِلَحْظَةٍ، إِنَّهُ أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِسَيِّدِكَ.»

وَافَقَ باسبارتو، رَغْمَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ لَا يَثِقُ بِذَلِكَ الْمُحَقِّقِ، فَوَقَفَ فيكس عَلَى قَدَمَيْهِ وَذَهَبَ الرَّجُلَانِ وَجَلَسَا معًا عَلَى الْمَقَاعِدِ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ.

قَالَ باسبارتو: «إِذَنْ أَنْتَ تَعْلَمُ الْآنَ أَنَّ سَيِّدِي رَجُلٌ شَرِيفٌ، وَتَخَلَّيْتَ عَنْ تِلْكَ الْفِكْرَةِ الْمَجْنُونَةِ أَنَّهُ لِصُّ الْبَنْكِ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

قَالَ فيكس: «بِالطَّبْعِ لَا.» فَرَفَعَ باسبارتو قَبْضَتَهُ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يَهُمُّ بِتَوْجِيهِ لَكْمَةٍ ثَانِيَةٍ؛ فَقَالَ فيكس «انْتَظِرْ! دَعْنِي أُكْمِلْ.» أَنْزَلَ الْخَادِمُ يَدَهُ، فَاسْتَطْرَدَ فيكس: «أَنَا الْآنَ دَاخِلَ اللُّعْبَةِ، فَالطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ هِيَ أَنْ يَكُونَ فِي إِنْجِلْتِرَا، وَالطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِعَوْدَتِكُمْ إِلَى إِنْجِلْتِرَا هِيَ أَنْ تُكْمِلُوا هَذَا السِّبَاقَ الْمَجْنُونَ حَوْلَ الْعَالَمِ، فَأَنَا أُدْرِكُ أَنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ إِيقَافَهُ؛ لِذَا سَأَفْعَلُ مَا بِوُسْعِي لِلْمُسَاعَدَةِ.»

لَمْ يَتَفَوَّهْ باسبارتو بِكَلِمَةٍ؛ فَتَابَعَ فيكس: «هَلْ نَحْنُ أَصْدِقَاءُ؟»

– «كَلَّا، لَسْنَا أَصْدِقَاءَ، وَلَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ نَكُونَ حُلَفَاءَ. وَرَغْمَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ أُحَذِّرَكَ بِأَنَّنِي سَوْفَ أَدُقُّ عُنُقَكَ عِنْدَ أَوَّلِ إِشَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ سَتُكَرِّرُ مَا فَعَلْتَهُ فِي هونج كونج!»

قَالَ فيكس: «مُوَافِقٌ.» وَكَانَ يُدْرِكُ أَنَّهُ فِي مَوْقِفِ ضَعْفٍ.

بَعْدَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا، رَسَتِ الْبَاخِرَةُ «جنرال جرانت» فِي سان فرانسيسكو، وَبِذَلِكَ لَمْ يَكْسِبْ فيلياس فوج أَوْ يَخْسِرْ أَيَّ يَوْمٍ فِي رِحْلَتِهِ، وَقَدْ دَوَّنَ ذَلِكَ فِي دَفْتَرِ يَوْمِيَّاتِهِ.

ذَهَبَ فيلياس مُبَاشَرَةً إِلَى مَحَطَّةِ الْقِطَارِ لِيَعْرِفَ مَوْعِدَ الْقِطَارِ التَّالِي الْمُتَّجِهِ إِلَى مَدِينَةِ نيويورك، فَوَجَدَ أَنَّ مَوْعِدَهُ فِي السَّادِسَةِ مَسَاءً؛ مِمَّا يَعْنِي أَنَّهُ وعودا يُمْكِنُهُمَا أَنْ يَنَالَا قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ فِي فُنْدُقِ «إنترناشونال هوتيل» لِبَقِيَّةِ الْيَوْمِ.

وَبَيْنَمَا اتَّجَهَ باسبارتو لِقَضَاءِ بَعْضِ الْمَهَامِّ، تَنَاوَلَ فيلياس وَعودا فَطُورًا شَهِيًّا، ثُمَّ ذَهَبَ فيلياس — مِثْلَمَا فَعَلَ فِي كُلِّ مِينَاءٍ رَسَا بِهِ — لِيَخْتِمَ جَوَازَ سَفَرِهِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ أَحْدَاثٍ مُؤْسِفَةٍ، وَاسْتَقَلَّ الْجَمِيعُ الْقِطَارَ الْمُتَّجِهَ إِلَى نيويورك — وَمَعَهُمْ فيكس — فِي تَمَامِ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ مِنْ ذَلِكَ الْمَسَاءِ.

عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ، اسْتَغْرَقَ الْمُسَافِرُونَ الْمُتْعَبُونَ فِي النَّوْمِ؛ فَعِنْدَمَا اسْتَقَلُّوا الْقِطَارَ كَانَ الظَّلَامُ قَدْ حَلَّ، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ الْكَثِيرُ لِيُشَاهِدُوهُ مِنَ النَّافِذَةِ. شَقَّ الْقِطَارُ طَرِيقَهُ مُسْرِعًا عَبْرَ كاليفورنيَا، وَمُرُورًا بِساكرامنتو، ثُمَّ بَدَأَ يَعْبُرُ خِلَالَ جِبَالِ سييرانيفادا. وَكَانَتْ قُضْبَانُ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ تَلْتَفُّ عَبْرَ الْمَمَرَّاتِ، وَالدُّخَانُ الَّذِي يَتَصَاعَدُ مِنَ الْقِطَارِ يَتَطَايَرُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ الضَّخْمَةِ.

وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، وَبَعْدَ تَنَاوُلِ الْإِفْطَارِ، كَانَ الْمُسَافِرُونَ الْأَرْبَعَةُ يُحَدِّقُونَ خَارِجَ النَّافِذَةِ فِي الْمَنَاظِرِ الطَّبِيعِيَّةِ الْخَلَّابَةِ أَمَامَهُمْ، حَيْثُ كَانَتِ الْجِبَالُ تَصْطَفُّ فِي الْأُفُقِ فِيمَا وَرَاءَ الْمُرُوجِ. وَلَمْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى عَادَ فيلياس يُدَوِّنُ مُلَاحَظَاتِهِ فِي دَفْتَرِ الْيَوْمِيَّاتِ، بِهُدُوئِهِ الْمُعْتَادِ طَوَالَ الرِّحْلَةِ. وَقَبْلَ الْغَدَاءِ مُبَاشَرَةً، دَخَلَ قَطِيعٌ مِنَ الْجَامُوسِ عَلَى مَسَارِ خَطِّ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ؛ فَتَوَقَّفَ الْقِطَارُ وَانْتَظَرَ السَّائِقُ بِصَبْرٍ حَتَّى عَبَرَ الْقَطِيعُ، لَكِنَّ باسبارتو لَمْ يَسْتَطِعِ الْجُلُوسَ سَاكِنًا، فَأَخَذَ يَقْطَعُ عَرَبَاتِ الْقِطَارِ جِيئَةً وَذَهَابًا وَهُوَ يَتَسَاءَلُ لِمَاذَا لَا يَخْرُجُ أَحَدٌ لِإِبْعَادِ ذَلِكَ الْقَطِيعِ!

وَبِحُلُولِ مَسَاءِ الْيَوْمِ الثَّانِي، كَانُوا قَدْ عَبَرُوا إِلَى وِلَايَةِ يوتا، وَكَانُوا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنَ مَدِينَةِ سولت ليك سيتي الْكُبْرَى، حَيْثُ كَانَتْ قَبَائِلُ الْمورمون تَسْتَوْطِنُ الْمِنْطَقَةَ.

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، كَانَ الطَّقْسُ فِي غَايَةِ الْبُرُودَةِ عِنْدَمَا خَطَا باسبارتو إِلَى الْخَارِجِ لِاسْتِنْشَاقِ بَعْضِ الْهَوَاءِ الْمُنْعِشِ، وَلَمْ يَتَوَقَّفْ تَسَاقُطُ الثُّلُوجِ، وَلَكِنْ كَانَتِ الشَّمْسُ سَاطِعَةً كَذَلِكَ. أَخَذَ الْقِطَارُ يَشُقُّ طَرِيقَهُ بِسُرْعَةٍ بَيْنَ الْمَزَارِعِ وَالْحُقُولِ الَّتِي تَنْمُو فِيهَا مَحَاصِيلُ الْقَمْحِ وَالذُّرَةِ فِي الْمَوَاسِمِ الْمُنَاسِبَةِ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُغَطَّاةً بِطَبَقَةٍ رَقِيقَةٍ مِنَ الثُّلُوجِ. مَدَّ باسبارتو ذِرَاعَيْهِ لِأَعْلَى فَوْقَ رَأْسِهِ وَفَكَّرَ: «إِنَّهُ حَقًّا بَلَدٌ مُثِيرٌ لِلِاهْتِمَامِ.»

وَفِي تِلْكَ الظَّهِيرَةِ، تَوَقَّفَ الْقِطَارُ فِي مَدِينَةِ أوجدن، وَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنْ يُغَادِرَ مُجَدَّدًا فِي غُضُونِ سِتِّ سَاعَاتٍ؛ مِمَّا أَتَاحَ لِلْمُسَافِرِينَ الْفُرْصَةَ لِاسْتِكْشَافِ مَدِينَةِ سولت ليك

سيتي، وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ مُحَاطَةً بِسُورٍ بُنِيَ فِي عَامِ ١٨٥٣ مِنَ الطِّينِ وَالْحَصَى. تَجَوَّلَ الْمُسَافِرُونَ فِي الشَّوَارِعِ، وَتَأَمَّلُوا الْمَنَازِلَ الْمُرَبَّعَةَ فِي الْمَدِينَةِ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى الْقِطَارِ.

وَبِمُجَرَّدِ أَنِ انْطَلَقَتْ صَافِرَةُ الْقِطَارِ وَبَدَأَتِ الْعَجَلَاتُ فِي التَّحَرُّكِ، نَظَرَ باسبارتو خَارِجَ النَّافِذَةِ فَرَأَى رَجُلًا طَوِيلًا يَرْتَدِي مِعْطَفًا طَوِيلًا دَاكِنَ اللَّوْنِ يَجْرِي عَلَى الرَّصِيفِ.

فَصَاحَ باسبارتو: «تَوَقَّفْ! تَوَقَّفْ!» وَبِالطَّبْعِ لَمْ يَتَوَقَّفِ الْقِطَارُ، فَرَكَضَ الرَّجُلُ أَسْرَعَ فَأَسْرَعَ حَتَّى قَفَزَ أَخِيرًا عَلَى الْمِنَصَّةِ الْخَلْفِيَّةِ لِلْقِطَارِ، فَابْتَسَمَ باسبارتو وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ: «رُبَّمَا يَقُومُ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَيْضًا بِجَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ!»

اتَّجَهَ الْقِطَارُ شَمَالًا مِنْ أوجدن إِلَى جِبَالِ روكي، وَكَانَ باسبارتو يَقْطَعُ الْقِطَارَ ذَهَابًا وَإِيَابًا؛ إِذْ إِنَّهُ كَانَ يَجِدُ صُعُوبَةً فِي الْبَقَاءِ هَادِئًا فِي مَكَانِهِ، وَكَذَلِكَ كَانَ فيكس لَا يُحِبُّ السَّفَرَ عَبْرَ الْجِبَالِ، فَلَقَدْ أَخَافَهُ ذَلِكَ قَلِيلًا. أَمَّا فيلياس، فَكَانَ بِالطَّبْعِ هَادِئًا تَمَامًا كَطَبِيعَتِهِ.

وَكَانَتِ الثُّلُوجُ لَا تَزَالُ تَنْهَمِرُ مِنَ السَّمَاءِ، فَتَسَاءَلَ باسبارتو فِي نَفْسِهِ: «لِمَاذَا لَمْ يَقُمْ سَيِّدِي بِهَذِهِ الْجَوْلَةِ فِي الصَّيْفِ، وَبِذَا لَمْ نَكُنْ لِنُوَاجِهَ مُشْكِلَةَ الطَّقْسِ السَّيِّئِ؟» ثُمَّ نَظَرَ خَارِجَ النَّافِذَةِ وَتَأَمَّلَ السَّمَاءَ الْغَارِقَةَ فِي الْغُيُومِ.

قَالَ فيكس: «إِنَّ السَّاعَاتِ تَمْضِي كَالدَّهْرِ عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ.»

قَالَ فيلياس: «نَعَمْ، وَلَكِنَّهَا تَمْضِي.»

فَقَالَ فيكس مُقْتَرِحًا: «يُمْكِنُنَا أَنْ نَلْعَبَ بَعْضَ الْجَوْلَاتِ مِنَ الْوَرَقِ.»

فَأَجَابَ فيلياس: «فِكْرَةٌ رَائِعَةٌ! لِنَلْعَبْ بريدج.»

وَهَكَذَا أَمْضَى الْجَمِيعُ سَاعَاتٍ طَوِيلَةً عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ؛ يَلْعَبُونَ الْوَرَقَ وَيَتَحَدَّثُونَ إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ وَيَتَنَاوَلُونَ الْإِفْطَارَ أَوِ الْغَدَاءَ أَوِ الْعَشَاءَ. وَكَانَ فيلياس مُحِقًّا؛ فَلَقَدْ مَرَّ الْوَقْتُ.

فَجْأَةً، انْطَلَقَتْ صَافِرَةٌ مُدَوِّيَةٌ وَتَوَقَّفَ الْقِطَارُ تَمَامًا.

قَالَ فيلياس: «رَجَاءً، اذْهَبْ وَانْظُرْ مَاذَا حَدَثَ يَا باسبارتو.»

هُرِعَ باسبارتو خَارِجًا مِنَ الْعَرَبَةِ، وَكَانَ هُنَاكَ مَجْمُوعَةٌ أُخْرَى مِنَ الرُّكَّابِ قَدْ تَجَمْهَرُوا. لَقَدْ أَوْقَفَ ضَوْءٌ أَحْمَرُ حَرَكَةَ الْقِطَارِ قَبْلَ بُلُوغِهِ أَحَدَ الْجُسُورِ، وَكَانَ سَائِقُ الْقِطَارِ وَالْمُحَصِّلُ يَتَحَدَّثَانِ مَعَ مَسْئُولِ الْإِشَارَةِ عَنْ سَبَبِ إِيقَافِ الْقِطَارِ.

فَقَالَ لَهُمَا: «إِنَّ الْجِسْرَ خَارِجَ الْخِدْمَةِ وَمُسْتَحِيلٌ عُبُورُهُ.»

وَهُنَا قَالَ الرَّجُلُ الَّذِي يَرْتَدِي الْمِعْطَفَ الْأَسْوَدَ الطَّوِيلَ وَيُدْعَى كولونيل بروكتور: «إِنَّنَا لَنْ نَظَلَّ هُنَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ أَسَوْفَ نَقْبَعُ بَيْنَ هَذِهِ الثُّلُوجِ؟»

قَالَ الْمُحَصِّلُ: «قَطْعًا لَا، لَقَدْ أَرْسَلْنَا بَرْقِيَّةً لِقِطَارٍ آخَرَ لِمُلَاقَاتِنَا فِي مَدِينَةِ ميديسين باو فِي غُضُونِ سِتِّ سَاعَاتٍ.»

صَاحَ باسبارتو: «سِتِّ سَاعَاتٍ! سِتِّ سَاعَاتٍ!»

تَابَعَ الْمُحَصِّلُ: «نَعَمْ، سَنَسْتَغْرِقُ هَذَا الْوَقْتَ لِلْوُصُولِ إِلَى هُنَاكَ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ.»

قَالَ باسبارتو: «سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ! كَمْ تَبْعُدُ تِلْكَ الْمَدِينَةُ؟»

قَالَ كولونيل بروكتور: «إِنَّهَا عَلَى بُعْدِ مِيلٍ وَاحِدٍ مِنْ هُنَا، لِمَاذَا سَنَسْتَغْرِقُ سِتَّ سَاعَاتٍ لِلْوُصُولِ إِلَى هُنَاكَ؟»

قَالَ الْمُحَصِّلُ: «حَسَنًا، إِنَّهَا عَلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنَ النَّهْرِ.»

سَأَلَ الكولونيل: «أَلَا يُمْكِنُنَا عُبُورُ النَّهْرِ عَلَى مَتْنِ قَارِبٍ؟»

أَجَابَ الْمُحَصِّلُ: «هَذَا مُسْتَحِيلٌ، فَالنَّهْرُ يَفِيضُ بِسَبَبِ الْأَمْطَارِ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا السَّيْرُ عَشَرَةَ أَمْيَالٍ شَمَالًا حَتَّى يُمْكِنُنَا الْعُبُورُ.»

وَكَانَ الرُّكَّابُ جَمِيعًا مُنْزَعِجِينَ مِنْ فِكْرَةِ السَّيْرِ لِمَسَافَةِ عَشَرَةِ أَمْيَالٍ فِي الْأَمْطَارِ وَالْبَرْدِ وْالثُّلُوجِ. صَمَتَ الكولونيل لِدَقِيقَةٍ، ثُمَّ تَحَدَّثَ بِصَوْتٍ عَالٍ مُخَاطِبًا الْجَمِيعَ الَّذِينَ كَانُوا مَشْغُولِينَ فِي تَذَمُّرِهِمْ.

قَالَ: «انْتَظِرُوا، أَعْتَقِدُ أَنَّ هُنَاكَ طَرِيقَةً لِعُبُورِ الْجِسْرِ.»

قَالَ الْمُحَصِّلُ: «مَاذَا تَعْنِي؟»

أَجَابَ الكولونيل: «أَعْتَقِدُ أَنَّ لَدَيْنَا فُرْصَةً فِي عُبُورِ الْجِسْرِ إِذَا جَعَلْنَا الْقِطَارَ يَسِيرُ بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ؛ فَإِذَا كُنَّا نَسِيرُ بِالسُّرْعَةِ الْقُصْوَى، فَقَدْ يَكُونُ لَدينا فُرْصَةٌ لِلْعُبُورِ قَبْلَ أَنْ يَنْهَارَ الْجِسْرُ تَمَامًا.»

كَانَ الرُّكَّابُ وَالسَّائِقُ مُتَحَمِّسِينَ لِلتَّجْرِبَةِ، وَكَانُوا عَلَى اقْتِنَاعٍ بِنَجَاحِ الْخُطَّةِ وَأَنَّهُمْ سَيَتَمَكَّنُونَ مِنَ الْعُبُورِ، حَتَّى مَنْ كَانَ مِنْهُمْ قَلِقًا بِشَأْنِ انْهِيَارِ الْجِسْرِ قَبْلَ أَنْ يَعْبُرُوا لَمْ يَتَفَوَّهْ بِشَيْءٍ، وَكَانَ باسبارتو خَائِفًا لَكِنَّهُ لَمْ يُعَبِّرْ عَنْ ذَلِكَ الْخَوْفِ. عَادَ الْجَمِيعُ عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ، وَسُرْعَانَ مَا بَدَأَ الْقِطَارُ يَتَحَرَّكُ مَرَّةً أُخْرَى.

انْطَلَقَتْ صَافِرَةُ الْقِطَارِ وَبَدَأَ يَنْطَلِقُ، ثُمَّ أَسْرَعَ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ؛ فِي الْوَاقِعِ، كَانَ يَسِيرُ بِسُرْعَةٍ جَامِحَةٍ حَتَّى بَدَا كَمَا لَوْ أَنَّهُ لَا يَسِيرُ عَلَى قُضْبَانٍ مُطْلَقًا! ثُمَّ عَبَرَ الْجِسْرَ! لَمْ تَسْتَغْرِقْ تِلْكَ الرِّحْلَةُ الْمَصِيرِيَّةُ سِوَى ثَانِيَةٍ وَاحِدَةٍ وَالْقِطَارُ يَطِيرُ مِنْ ضَفَّةِ النَّهْرِ إِلَى الْأُخْرَى، وَبَعْدَ ثَوَانٍ مَعْدُودَةٍ مِنْ مُرُورِ الْقِطَارِ بِأَكْمَلِهِ، تَهَاوَى الْجِسْرُ إِلَى الْمِيَاهِ أَسْفَلَهُ مُحْدِثًا ضَجَّةً شَدِيدَةً.

الفصل الرابع عشر

فيلياس وباسبارتو يُوَاجِهَانِ خَارِجِينَ عَلَى الْقَانُونِ عَلَى السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ

انْطَلَقَ الْقِطَارُ مُتَجَاوِزًا مَدِينَةَ فورت ساندرز، وَعَبَرَ شايَان باس إِلَى إيفنز باس؛ حَيْثُ صَعِدَ فيلياس وَباسبارتو إِلَى أَعْلَى ارْتِفَاعٍ وَصَلَا إِلَيْهِ مُنْذُ انْطِلَاقِهِمَا فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمُذْهِلَةِ حَوْلَ الْعَالَمِ. اسْتَمَرَّ الْقِطَارُ فِي الْمُضِيِّ قُدُمًا وَعَبَرَ أَرَاضِيَ وايومينج وَكولورادو إِلَى نبراسكا؛ وَبَيْنَمَا كَانَ الْقِطَارُ يَشُقُّ طَرِيقَهُ، أَمْضَى الْمُسَافِرُونَ الْأَرْبَعَةُ وَقْتَهُمْ فِي لَعِبِ الْوَرَقِ.

وَبَيْنَمَا كَانَ الْقِطَارُ يَمْضِي فِي طَرِيقِهِ إِلَى أوماها، دَوَّى صَوْتُ اصْطِدَامٍ هَائِلٍ. تَوَقَّفَ الْقِطَارُ تَمَامًا عَلَى الْقُضْبَانِ، وَنَظَرَ جَمِيعُ الرُّكَّابِ فِي الْعَرَبَةِ إِلَى الْخَارِجِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا رُؤْيَةَ شَيْءٍ. وَفَجْأَةً، عَادَ الْقِطَارُ لِيَتَحَرَّكَ مُجَدَّدًا.

سَأَلَ باسبارتو: «مَاذَا حَدَثَ بِحَقِّ السَّمَاءِ؟» ثُمَّ التَفَتَ إِلَى فيلياس وَقَالَ: «سَأَذْهَبُ لِأَتَفَقَّدَ الْأَمْرَ يَا سَيِّدِي.»

خَرَجَ باسبارتو مِنَ الْعَرَبَةِ وَسَارَ نَحْوَ مُقَدِّمَةِ الْقِطَارِ، وَكَانَ عَدَدٌ مِنَ الرُّكَّابِ قَدْ خَرَجَ كَذَلِكَ وَمِنْ بَيْنِهِمْ كولونيل بروكتور، وَكَانُوا يَسْمَعُونَ ضَجِيجًا مِنْ أَحَدِ جَانِبَيِ الْقِطَارِ، ثُمَّ بَدَأَ الرُّكَّابُ فِي الصُّرَاخِ.

وداخِلَ الْعَرَبَةِ، شَحُبَ وَجْهُ عودا عِنْدَمَا سَمِعَتِ الصِّيَاحَ وَالضَّجِيجَ بِالْخَارِجِ، وَسَأَلَتْ: «مَا الَّذِي حَدَثَ فِي رَأْيِكَ؟»

أَجَابَ الْمُحَقِّقُ فيكس: «أُرَاهِنُ أَنَّ هُنَاكَ خَارِجِينَ عَنِ الْقَانُونِ قَدْ هَاجَمُوا الْقِطَارَ!»

وَضَعَ فيلياس أَوْرَاقَهُ بِهُدُوءٍ وَقَالَ: «فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، قَدْ تَكُونُ أَمَامَنَا مَعْرَكَةٌ!» ثُمَّ اسْتَطْرَدَ عِنْدَمَا رَأَى الصَّدْمَةَ عَلَى وَجْهِ عودا: «وَلَكِنْ دَعُونَا نَأْمُلُ أَلَّا تَصِلَ الْأُمُورُ لِهَذَا الْحَدِّ. عَلَيْكِ الْبَقَاءُ هُنَا فِي مَأْمَنٍ يَا عودا، أَغْلِقِي ذَلِكَ الْبَابَ بِإِحْكَامٍ وَلَا تَدَعِي أَحَدًا يَدْخُلُ!»

وَكَمَا اتَّضَحَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَدْ هَاجَمَتْ عِصَابَةٌ قِوَامُهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ الْقِطَارَ، وَقَدْ قَفَزَ الْعَدِيدُ مِنْهُمْ إِلَى الدَّاخِلِ وَالْقِطَارُ يَتَحَرَّكُ! وَكَانُوا مُلَثَّمِينَ وَمُدَجَّجِينَ بِالسِّلَاحِ، وَكَانُوا قَدْ دَاهَمُوا عَرَبَةَ سَائِقِ الْقِطَارِ وَأَفْقَدُوهُ الْوَعْيَ، وَأَخَذُوا يَتَنَقَّلُونَ مِنْ عَرَبَةٍ لِأُخْرَى وَهُمْ يَسْلُبُونَ كُلَّ مَا يُمْكِنُهُمْ مِنَ الْمُسَافِرِينَ الْمَسَاكِينِ.

سَارَ الْقِطَارُ أَسْرَعَ فَأَسْرَعَ بِدُونِ سَائِقٍ لِلتَّحَكُّمِ فِيهِ، وَإِذَا لَمْ يَتَوَقَّفِ الْقِطَارُ فَحَتْمًا سَيَصْطَدِمُ بِشَيْءٍ وَيَتَحَطَّمُ. عِنْدَمَا اكْتَشَفَ باسبارتو مَا يَحْدُثُ، عَادَ هُوَ وَالكولونيل بروكتور سَرِيعًا لِلْمُسَاعَدَةِ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَكَانَ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ يَتَعَارَكُونَ بِالْفِعْلِ مَعَ قَاطِعِي الطَّرِيقِ، وَاشْتَبَكَ باسبارتو فِي الْقِتَالِ فَوْرًا بِتَسْدِيدِ اللَّكَمَاتِ وَالرَّكَلَاتِ مُسْتَخْدِمًا كُلَّ قُدْرَاتِهِ الْبَهْلَوَانِيَّةِ. وَكَانَ الْكُولُونِيل بروكتور يَتَمَتَّعُ بِقَبْضَةٍ قَوِيَّةٍ، وَقَدْ صَرَعَ عَدَدًا مِنْ قَاطِعِي الطَّرِيقِ بِيَدَيْهِ الْعَارِيَتَيْنِ!

وَفِي خِضَمِّ الْمَعْرَكَةِ، وَوَسْطِ تَطَايُرِ الْأَذْرُعِ وَالْقَبَضَاتِ هُنَا وَهُنَاكَ، لَاحَظَ باسبارتو ثَلَاثَةً مِنْ قُطَّاعِ الطُّرُقِ يُحِيطُونَ بِالْمُحَصِّلِ الْمِسْكِينِ، وَصَرَخَ الْمُحَصِّلُ وَهُوَ يَسْقُطُ أَرْضًا: «إِذَا لَمْ يَتَوَقَّفِ الْقِطَارُ عِنْدَ مَحَطَّةِ «فورت كيَارني»، فَسَوْفَ نَهْلِكُ جَمِيعًا! سَيَتَحَطَّمُ الْقِطَارُ! سَيَتَحَطَّمُ الْقِطَارُ!»

فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ فيلياس قَدْ انْضَمَّ إِلَى الْمَعْرَكَةِ؛ بَلْ وَكَانَ بِجَانِبِ الْمُحَصِّلِ، فَسَدَّدَ لَكْمَةً قَوِيَّةً لِأَنْفِ أَحَدِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ وَقَالَ: «سَيَقِفُ إِذَنْ!» وَاتَّجَهَ مُسْرِعًا إِلَى مُقَدِّمَةِ الْقِطَارِ، وَلَكِنَّ باسبارتو أَوْقَفَهُ وَقَالَ: «ابْقَ أَنْتَ يَا سَيِّدِي! سَوْفَ أَذْهَبُ أَنَا.»

لَمْ يَكُنْ لَدَى فيلياس وَقْتٌ لِيُوقِفَهُ، حَيْثُ قَفَزَ أَحَدُ أَفْرَادِ الْعِصَابَةِ عَلَى ظَهْرِهِ وَبَدَأَ يَجْذِبُهُ أَرْضًا.

انْزَلَقَ باسبارتو مِنَ الْعَرَبَةِ وَزَحَفَ تَحْتَ الْقِطَارِ الْمُتَحَرِّكِ، وَبِالِاعْتِمَادِ عَلَى خِبْرَتِهِ كَبَهْلَوَانٍ، تَعَلَّقَ بِالسَّلَاسِلِ وَسَحَبَ نَفْسَهُ بِاسْتِخْدَامِ الْفَرَامِلِ، وَزَحَفَ مِنْ عَرَبَةٍ لِأُخْرَى حَتَّى وَصَلَ إِلَى عَرَبَةِ الْقِيَادَةِ.

وَبِكُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ قُوَّةٍ، تَمَكَّنَ باسبارتو مِنْ سَحْبِ سِلْسِلَةِ الْأَمَانِ مِنْ عَرَبَةِ الْقِيَادَةِ، وَرَأَى الْعَرَبَةَ وَهِيَ تَنْفَصِلُ عَنْ بَاقِي الْقِطَارِ، ثُمَّ بَذَلَ مَا فِي وُسْعِهِ لسَحْبِ الْفَرَامِلِ. وَأَخِيرًا، تَوَقَّفَتْ بَاقِي عَرَبَاتِ الْقِطَارِ تَمَامًا أَمَامَ مَحَطَّةِ فورت كيرني، بَيْنَمَا انْطَلَقَتْ عَرَبَةُ الْقِيَادَةِ وَحْدَهَا.

كَانَ الْجُنُودُ فِي الْحِصْنِ قَدْ سَمِعُوا الشَّغْبَ، وَكَانُوا عَلَى أُهْبَةِ الِاسْتِعْدَادِ لِمُوَاجَهَةِ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ، وَلَكِنْ عِنْدَمَا رَأَى أَفْرَادُ الْعِصَابَةِ الْجُنُودَ وَهُمْ مُصْطَفُّونَ وَمُسْتَعِدُّونَ بِأَسْلِحَتِهِمْ لِإِطْلَاقِ النِّيرَانِ، تَرَكُوا الْقِطَارَ، وَقَفَزُوا عَلَى خُيُولِهِمْ، وَلَاذُوا بِالْفِرَارِ.

وَبَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ الْمَوْقِفُ آمِنًا، غَادَر عودا وَفيلياس وَفيكس الْقِطَارَ وَوَقَفُوا عَلَى الرَّصِيفِ، ثُمَّ صَاحَتْ عودا: «أَيْنَ باسبارتو؟ إِنَّهُ لَيْسَ هُنَا!»

حَاوَلَ فيلياس تَهْدِئَتَهَا، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ فِيمَ كَانَتْ هِيَ وَفيكس يُفَكِّرَانِ؛ لَقَدِ اخْتَطَفَتِ الْعِصَابَةُ باسبارتو! وَبَدَأَتْ عودا فِي الْبُكَاءِ.

إِذَا كَانَ خَادِمُ فيلياس سَجِينًا لَدَى الْخَارِجِينَ عَلَى الْقَانُونِ، فَعَلَيْهِ إِنْقَاذُهُ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خَيَارٌ آخَرُ.

فَقَالَ: «لَا تَقْلَقِي يَا عودا، سَأَعْثُرُ عَلَى باسبارتو حَيًّا أَوْ مَيِّتًا.»

بَكَتْ عودا وَهِيَ تُغَطِّي وَجْهَهَا بِيَدَيْهَا: «يَا إِلَهِي! فيلياس!»

أَصَرَّ: «حَيًّا! إِذَا ذَهَبْنَا فَوْرًا.» اسْتَدَارَ فيلياس وَرَأَى قَائِدَ الْحِصْنِ يَقِفُ عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ، فَنَادَى عَلَيْهِ: «أَيُّهَا الْقَائِدُ!»

اسْتَدَارَ الْقَائِدُ نَحْوَهُ، فَقَالَ فيلياس: «لَقَدِ اخْتَطَفَ قَاطِعُو الطُّرُقِ خَادِمِي يَا سَيِّدِي، وَأَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ قَد اخْتَطَفُوا بَعْضَ الرُّكَّابِ كَذَلِكَ؛ يَجِبُ مُطَارَدَتُهُمْ!»

قَالَ الْقَائِدُ: «هَذِهِ مُخَاطَرَةٌ شَدِيدَةٌ يَا سَيِّدِي، فَرُبَّمَا يَكُونُونَ قَدْ عَادُوا بِهِمْ إِلَى أركنساس، وَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتْرُكَ الْحِصْنَ بِدُونِ حِمَايَةٍ.»

قَالَ فيلياس: «حَسَنًا، إِذَنْ سَأَذْهَبُ بِمُفْرَدِي.»

صَاحَ فيكس: «بِمُفْرَدِكَ! هَلْ سَتَذْهَبُ لِمُطَارَدَةِ قَاطِعِي الطَّرِيقِ بِمُفْرَدِكَ؟»

قَالَ الْقَائِدُ: «كَلَّا، لَنْ أَسْمَحَ بِذَلِكَ، سَأُعْطِيكَ ثَلَاثِينَ مُتَطَوِّعًا لِيَذْهَبُوا مَعَكَ.» ثُمَّ اسْتَدَارَ إِلَى قُوَّاتِهِ وَقَالَ: «أَيُّهَا الرِّجَالُ! أَحْتَاجُ إِلَى ثَلَاثِينَ مُتَطَوِّعًا مِنْكُمْ لِلذَّهَابِ مَعَ هَذَا الرَّجُلِ الشُّجَاعِ لِإِنْقَاذِ الرُّكَّابِ الَّذِينَ اخْتَطَفَهُمْ قَاطِعُو الطَّرِيقِ، مَنْ سَيَذْهَبُ مَعَهُ؟»

تَقَدَّمَتِ السَّرِيَّةُ بِالْكَامِلِ مُتَطَوِّعَةً، لَكِنَّ الْقَائِدَ اخْتَارَ ثَلَاثِينَ مِنْ أَفْضَلِ رِجَالِهِ، وَسُرْعَانَ مَا كَانُوا مُسْتَعِدِّينَ لِلانْطِلَاقِ.

أَصَرَّ فيكس: «سَأَذْهَبُ مَعَكَ.»

أَجَابَ فيلياس: «كَلَّا، يَجِبُ أَنْ تَظَلَّ مَعَ الْآنِسَةِ عودا، تَحَسُّبًا لِأَيِّ شَيْءٍ يَحْدُثُ لِي.»

نحى فيكس مَشَاعِرَهُ تِجَاهَ فيلياس جَانِبًا، وَقَالَ: «حَسَنًا، سَأَبْقَى!» وَالْتَفَتَ إِلَى عودا.

– «لَا تَقْلَقِي يَا آنِسَةُ، مَعَنَا هُنَا أَيْضًا الكولونيل بروكتور.» وَكَانَ الكولونيل بروكتور يَجْلِسُ لِلاعْتِنَاءِ بِجُرْحٍ فِي ذِرَاعِهِ، وَعِنْدَمَا وَجَدَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، لَوَّحَ لَهُمْ بِالنَّصْرِ بِيَدِهِ السَّلِيمَةِ.

ضَغَطَ فيلياس عَلَى يَدِ عودا بِرِفْقٍ وَتَرَكَ لَهَا حَقِيبَتَهُ الْقُمَاشِيَّةَ لِتَعْتَنِيَ بِهَا، ثُمَّ انْضَمَّ إِلَى الْجُنُودِ الَّذِينَ عَثَرُوا لَهُ عَلَى حِصَانٍ إِضَافِيٍّ لِيَمْتَطِيَهُ. وَقَبْلَ الْمُغَادَرَةِ، قَالَ فيلياس لِلْجُنُودِ: «يَا أَصْدِقَائِي، أُرِيدُ اسْتِعَادَةَ رِفَاقِنَا الْمُسَافِرِينَ عَلَى قَيدِ الْحَيَاةِ. وَكَيْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَهَمَّةُ تَسْتَحِقُّ الْوَقْتَ وَالْعَنَاءَ، سَوْفَ أُقَسِّمُ بَيْنَكُمْ مَبْلَغَ خَمْسَةِ آلَافِ دُولَارٍ بَعْدَ إِنْقَاذِ هَؤُلَاءِ السُّجَنَاءِ.»

ثُمَّ انْطَلَقُوا!

وَبَيْنَمَا كَانَتْ عودا تَنْتَظِرُ بِصَبْرٍ رُجُوعَ فيلياس وَالْجُنُودِ دَاخِلَ الْمَحَطَّةِ، كَانَ الْمُحَقِّقُ فيكس يَقْطَعُ الْمَحَطَّةَ جِيئَةً وَذَهَابًا. وَفَجْأَةً، دَوَّى صَوْتُ صَافِرَةٍ عَالِيَةٍ مِنْ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ؟ وَبَدَأَ جِسْمٌ مُظْلِمٌ يَظْهَرُ مِنْ بَيْنِ الثُّلُوجِ، إِنَّهَا الْقَاطِرَةُ! كَانَ سَائِقُ الْقِطَارِ قَدِ اسْتَعَادَ وَعْيَهُ وَاكْتَشَفَ مَا حَدَثَ، فَقَادَ الْعَرَبَةَ عَائِدًا بِهَا إِلَى حِصْنِ فورت كيرني.

شَعَرَ الرُّكَّابُ بِالسَّعَادَةِ الْغَامِرَةِ لِرُؤْيَةِ عَرَبَةِ الْقِيَادَةِ، فَالْآنَ يُمْكِنُهُمْ مُوَاصَلَةُ طَرِيقِهِمْ إِلَى أوماها.

انْدَفَعَتْ عودا منَ الْمَحطَّةِ وَسَأَلَتِ الْمُحَصِّلَ: «هَلْ سَيَتَحَرَّكُ الْقِطَارُ الْآنَ؟»

أَجَابَ: «فِي التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ يَا سَيِّدَتِي.»

قَالَتْ: «وَلَكِنَّ السُّجَنَاءَ لَمْ يَعُودُوا بَعْدُ، يَجِبُ أَنْ نَنْتَظِرَهُمْ.»

– «أَخْشَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مُمْكِنًا، يَجِبُ أَنْ نَتَحَرَّكَ فَوْرًا؛ فَلَقَدْ تَأَخَّرْنَا بِالْفِعْلِ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ عَنْ مَوْعِدِنَا.»

قَالَتْ: «لَنْ أَذْهَبَ، وَأَنْتَ أَيْضًا يَجِبُ أَلَّا تَذْهَبَ، هَذَا مُخْزٍ.»

قَالَ: «يُؤْسِفُنِي أَنَّكِ تَشْعُرِينَ بِهَذَا يَا سَيِّدَتِي، وَلَكِنَّ مَعَنَا رُكَّابًا آخَرِينَ يَجِبُ أَنْ نُفَكِّرَ بِشَأْنِهِمْ أَيْضًا.»

كَانَ الرُّكَّابُ الْآخَرُونَ — بَعْضُهُمْ مُصَابٌ وَالْبَعْضُ الْآخَرُ مُعَافًى — قَدْ صَعِدُوا عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ وَعَادُوا إِلَى عَرَبَاتِهِمْ. وَدَعَتْ عودا الكولونيل الَّذِي قَدْ قَرَّرَ مُوَاصَلَةَ رِحْلَتِهِ، وَشَكَرَتْهُ لِمَا قَدَّمَهُ مِنْ مُسَاعَدَةٍ فِي مُوَاجَهَةِ قَاطِعِي الطَّرِيقِ.

صَعِدَ الْمُحَقِّقُ فيكس أَيْضًا عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ، وَلَكِنْ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ قَرَّرَ الْبَقَاءَ مَعَ عودا، كَمَا وَعَدَ. تَصَاعَدَ الْبُخَارُ مِنْ مُقَدِّمَةِ الْقِطَارِ وَهُوَ يَسِيرُ مُبْتَعِدًا، وَكَانَتِ الثُّلُوجُ لَا تَزَالُ تَنْهَمِرُ مِنَ السَّمَاءِ.

حَلَّ الْمَسَاءُ، وَكَانَ السُّجَنَاءُ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ، وَكَانَتْ عودا تَتَمَشَّى بِطُولِ الرَّصِيفِ بَيْنَمَا جَلَسَ فيكس سَاكِنًا قَدْرَ الْمُسْتَطَاعِ، وَمَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، اشْتَدَّتْ بُرُودَةُ الطَّقْسِ بِشِدَّةٍ. وَلَكِنْ كَانَ خَيَالُ عودا قَدْ سَبَحَ بَعِيدًا وَهِيَ تُفَكِّرُ فِيمَا حَدَثَ لِفيلياس وَباسبارتو؟ وَفِي الْفَجْرِ، سُمِعَ دَوِيُّ طَلْقٍ نَارِيٍّ أُطْلِقَ كَإِشَارَةٍ مِنْ عَلَى بُعْدٍ، وَانْدَفَعَتْ عودا إِلَى الرَّصِيفِ، وَوَقَفَ فيكس إِلَى جَانِبِهَا. إِنَّهُمَا فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِمَا! فيلياس وَباسبارتو عَادَا سَالِمَيْنِ!

عِنْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْمَحَطَّةِ، أَعْطَى فيلياس الْمُكَافَأَةَ لِلْجُنُودِ الْبَوَاسِلِ الَّذِينَ سَاعَدُوهُ، فِي حِينِ نَظَرَ باسبارتو حَوْلَهُ بَحْثًا عَنِ الْقِطَارِ؛ فَقَدْ كَانَتْ رِحْلَةُ سَيِّدِهِ أَكْثَرَ مَا يَشْغَلُ بَالَهُ.

فَسَأَلَ: «أَيْنَ الْقِطَارُ؟»

قَالَتْ عودا: «لَقَدْ رَحَلَ، غَادَرَ بِالْأَمْسِ بِدُونِنَا.»

صَاحَ باسبارتو: «لَا يُمْكِنُ! مَتَى سَيَصِلُ الْقِطَارُ التَّالِي؟»

أَجَابَتْ: «لَيْسَ قَبْلَ هَذَا الْمَسَاءِ.»

قَالَ فيلياس فوج بِهُدُوءٍ: «حَسَنًا.»

كَانَ باسبارتو غَاضِبًا بِشِدَّةٍ، فَالْمَعْرَكَةُ مَعَ قَاطِعِي الطَّرِيقِ قَدْ تَكُونُ كَلَّفَتْ سَيِّدَهُ الرِّهَانَ!

فَسَأَلَ: «مَاذَا سَنَفْعَلُ الْآنَ؟»

لَمْ يَتَفَوَّهْ أَحَدٌ بِكَلِمَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْهُمْ يُدْرِكُ مَاذَا يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلُوا، فَلَا يُمْكِنُهُمُ انْتِظَارُ الْقِطَارِ، وَلَكِنْ هَلْ هُنَاكَ حَلٌّ آخَرُ؟

وَعَلى مَضَضٍ، تَحَدَّثَ الْمُحَقِّقُ فيكس، رَغْمَ كُرْهِهِ لِهَذَا؛ فَلَقَدْ وَعَدَ بِمُسَاعَدَةِ باسبارتو لِكَيْ يَظَلَّ فِي الْمَسَارِ الصَّحِيحِ، كَمَا أَنَّهُ كُلَّمَا كَانَتْ عَوْدَتُهُمْ إِلَى إِنْجِلْتِرَا أَسْرَعَ، كَانَ إِلْقَاءُ الْقَبْضِ عَلَيْهِ أَسْرَعَ؛ فقَالَ فيكس: «قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ حَلٌّ!» نَظَرَ الْجَمِيعُ إِلَيْهِ، «لَيْلَةَ أَمْسِ، أَخْبَرَنِي رَجُلٌ أَنَّ هُنَاكَ مِزْلَجَةً بِشِرَاعٍ يُمْكِنُ أَنْ تُوَصِّلَنَا إِلَى أوماها، وَمِنْ هُنَاكَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَلْحَقَ بِالْقِطَارِ الْمُتَّجِهِ إِلَى نيويورك.»

فَقَالَ باسبارتو مُتَعَجِّبًا: «إِذَنْ لَا يَزَالُ هُنَاكَ أَمَلٌ!»

قَالَ فيلياس: «لِنَرَ مَاذَا سَيَقُولُ لَنَا الرَّجُلُ صَاحِبُ الْمِزْلَجَةِ الْغَرِيبَةِ.»

كَانَ الرَّجُلُ الَّذِي يَمْلِكُ الْمِزْلَجَةَ يُدْعَى مادج، وَفِي الشِّتَاءِ غَالِبًا مَا يَسْتَخْدِمُ مِزْلَجَتَهُ فِي نَقْلِ الْأَشْخَاصِ مِنْ مَحَطَّةِ قِطَارٍ لِأُخْرَى فِي الطَّقْسِ السَّيِّئِ. وَكَانَتْ الْمِزْلَجَةُ الْغَرِيبَةُ طَوِيلَةً لِلْغَايَةِ، وَبِهَا سَارِيَةٌ عَالِيَةٌ تَحْمِلُ الشِّرَاعَ، وَكَانَ بِهَا مُتَّسَعٌ لِسِتَّةِ أَفْرَادٍ.

عَقَدَ فيلياس صَفْقَةً سَرِيعًا مَعَ مادج لِإِيصَالِهِمْ إِلَى أوماها، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ أَنْ تُضْطَرَّ عودا لِلسَّفَرِ فِي الْهَوَاءِ الطَّلْقِ؛ فَسَأَلَهَا إِذَا كَانَتْ تَرْغَبُ فِي انْتِظَارِ الْقِطَارِ، وَيُمْكِنُ لِباسبارتو الْبَقَاءُ بِجَانِبِهَا، وَلَكِنَّهَا رَفَضَتْ، وَكَانَ باسبارتو سَعِيدًا بِرَفْضِهَا؛ إِذْ إِنَّهُ كَانَ لَا يَزَالُ لَا يَثِقُ فِي الْمُحَقِّقِ، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يَتْرُكَهُ وَحْدَهُ مَعَ سَيِّدِهِ.

وَلَمْ يَمْضِ الْكَثِيرُ حَتَّى كَانَتِ الْمِزْلَجَةُ جَاهِزَةً، وَرَكِبَهَا الْجَمِيعُ وَتَدَثَّرُوا بِأَغْطِيَةٍ ثَقِيلَةٍ لِيَشْعُرُوا بِالدِّفْءِ.

يَا لَهَا مِنْ رِحْلَةٍ! أَسْرَعَتِ الْمِزْلَجَةُ تَشُقُّ طَرِيقَهَا عَلَى الْمُرُوجِ بِخِفَّةٍ كَمَا يَشُقُّ الْمَرْكَبُ طَرِيقَهُ فِي الْمِيَاهِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مُتَجَمِّدَةً! وَكَانَتِ الرِّيَاحُ قَوِيَّةً وَفِي الِاتِّجَاهِ الْمُنَاسِبِ تَمَامًا، وَكَانَتِ الْحُقُولُ الْبَيْضَاءُ الشَّاسِعَةُ أَمَامَهُمْ لَا تَتْرُكُ مَجَالًا لِظُهُورِ الْمَنَازِلِ أَوِ الْمُدُنِ أَوِ الْقُرَى، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَقِفْ أَمَامَهُمْ أَيُّ عَائِقٍ. وَمِنْ حِينٍ لِآخَرَ، كَانُوا يَمُرُّونَ بِشَجَرَةٍ سَقَطَتِ الْأَوْرَاقُ مِنْ عَلَى أَغْصَانِهَا.

وَفَجْأَةً، رَأَى مادج أَسْطُحًا بَيْضَاءَ عَلَى بُعْدٍ؛ فَصَاحَ: «لَقَدْ وَصَلْنَا!» وَسُرْعَانَ مَا مَرَّتِ الْأَمْيَالُ الْأَخِيرَةُ الْمُتَبَقِّيَةُ وَهُرِعَ الْمُسَافِرُونَ لِلَّحَاقِ بِالْقِطَارِ. لَقَدْ نَجَحُوا!

وَصَلُوا إِلَى شيكاغو وَلَمْ يَتَبَقَّ أَمَامَهُمْ سِوَى أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً قَبْلَ انْطِلَاقِ الْبَاخِرَةِ إِلَى إِنْجِلْتِرَا، فَانْطَلَقُوا بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ. وَفِي النِّهَايَةِ ظَهَرَتْ نيويورك فِي الْأُفُقِ، وَتَوَقَّفَ الْقِطَارُ

أَمَامَ مَكْتَبِ الْبَاخِرَةِ تَمَامًا. وَلَكِنْ كَانَتِ الْبَاخِرَةُ «تشاينا» الْمُتَّجِهَةُ إِلَى ليفربول قَدْ غَادَرَتْ قَبْلَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً فَقَطْ!

صُعِقَ باسبارتو، لَا يُمْكِنُ هَذَا! لَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ فَقَطْ لِيُفَوِّتُوا السَّفِينَةَ بِفَارِقِ سَاعَةٍ إِلَّا رُبْعًا!

فَقَالَ فيلياس فوج: «لَا يُوجَدُ شَيْءٌ يُمْكِنُنَا فِعْلُهُ اللَّيْلَةَ، لِنَذْهَبْ إِلَى الْفُنْدُقِ، وَسَنَكْتَشِفُ مَا عَلَيْنَا فِعْلُهُ فِي الصَّبَاحِ.»

الفصل الخامس عشر

فيلياس فوج يَجِدُ طَرِيقَهُ إِلَى ليفربول

فِي الْيَوْمِ التَّالِي، غَادَرَ فيلياس الْفُنْدُقَ بِمُفْرَدِهِ، وَكَانَ يَنْوِي الْعُثُورَ عَلَى سَفِينَةٍ تُقِلُّهُمْ إِلَى ليفربول مُبَاشَرَةً؛ إِذْ كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ هُوَ الثَّانِيَ عَشَرَ مِنْ دِيسَمْبِرَ وَلَمْ يَتَبَقَّ لَدَيْهِ سِوَى تِسْعَةِ أَيَّامٍ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ سَاعَةً وَخَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً فَقَطْ.

أَخَذَ يَتَجَوَّلُ ذَهَابًا وَإِيَابًا عَلَى جَانِبِ النَّهْرِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ إِيجَادَ مَرْكَبٍ لِإِيصَالِهِ. وَكَادَ أَنْ يَفْقِدَ الْأَمَلَ حَتَّى رَأَى سَفِينَةً تِجَارِيَّةً صَغِيرَةً تَقِفُ بَعِيدَةً عَنِ السُّفُنِ الْأُخْرَى، وَكَانَ الْبُخَارُ يَنْبَعِثُ مِنَ الْمَدْخَنَةِ الَّتِي تَعْلُو الْمَرْكَبَ؛ أَيْ إِنَّهَا كَانَتْ عَلَى وَشْكِ الرَّحِيلِ.

نَادَى فيلياس عَلَى قَارِبٍ لِيَأْخُذَهُ إِلَى تِلْكَ السَّفِينَةِ، وَسُرْعَانَ مَا وَجَدَ نَفْسَهُ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ «هنريتا». وَكَانَ قُبْطَانُ السَّفِينَةِ — رَجُلٌ يَبْلُغُ مِنَ الْعُمْرِ خَمْسِينَ عَامًا وَلَهُ عَيْنَانِ مُسْتَدِيرَتَانِ كَبِيرَتَانِ وَشَعْرٌ أَحْمَرُ فَاتِحٌ وَلِحْيَةٌ نُحَاسِيَّةُ اللَّوْنِ — يَجْلِسُ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، وَكَانَ يُدْعَى أندرو سبيدي.

فَسَأَلَهُ فيلياس: «هَلْ أَنْتُمْ عَلَى وَشْكِ الْإِبْحَارِ؟»

أَجَابَ الْقُبْطَانُ سبيدي: «نَعَمْ، سَنُغَادِرُ إِلَى بوردو فِي غُضُونِ سَاعَةٍ.»

– «هَلْ تُقِلُّ رُكَّابًا؟»

قَالَ الْقُبْطَانُ سبيدي: «كَلَّا، لَا نُقِلُّ رُكَّابًا، نَحْنَ لَا نَحْمِلُ أَبَدًا أَيَّ رُكَّابٍ، فَهُمْ يُعِيقُونَ تَقَدُّمَنَا.»

– «هَلْ سَفِينَتُكَ سَرِيعَةٌ؟»

قَالَ الْقُبْطَانُ: «نَعَمْ، إِنَّ سُرْعَتَهَا جَيِّدَةٌ، أَقْصَى سُرْعَةٍ مُمْكِنَةٍ.»

سَأَلَهُ فيلياس: «هَلْ تَأْخُذُنِي إِلَى ليفربول؟ أَنَا وَثَلَاثَةَ رُكَّابٍ آخَرِينَ.»

– «كَلَّا.»

– «كَلَّا؟»

أَصَرَّ الْقُبْطَانُ سبيدي: «كَلَّا، قُلْتُ إِنَّنَا سَنَذْهَبُ إِلَى بوردو، وَلِهَذَا سَنَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ.»

حَاوَلَ فيلياس مَعَهُ بِكُلِّ السُّبُلِ؛ فَحَاوَلَ شِرَاءَ الْقَارِبِ، وَحَاوَلَ أَنْ يَدْفَعَ لِلْقُبْطَانِ مُقَابِلَ تَوْصِيلِهِمْ، وَلَكِنْ رَفَضَ الْقُبْطَانُ كُلَّ عُرُوضِهِ. حَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَ فيلياس قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ شِرَاءِ طَرِيقِهِ حَوْلَ الْعَالَمِ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَمْ يَكُنِ الْمَالُ هُوَ الْحَلَّ.

سَأَلَهُ فيلياس: «هَلْ تَأْخُذُنَا إِلَى بردو مُقَابِلَ أَلْفَي دُولَارٍ لِلْفَرْدِ؟»

حَكَّ الْقُبْطَانُ سبيدي رَأْسَهُ وَقَالَ: «أَنْتُمْ أَرْبَعَةٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

أَجَابَ فيلياس: «هَذَا صَحِيحٌ.»

– «هَلْ أَنْتُمْ جَمِيعًا جَاهِزُونَ لِلسَّفَرِ؟» فَأَوْمَأَ فيلياس بِرَأْسِهِ بِالْإِيجَابِ.

أَكْمَلَ الْقُبْطَانُ: «حَسَنًا، سَنُغَادِرُ فِي التَّاسِعَةِ، فَإِذَا كُنْتُمْ هُنَا، فَسَنَصْطَحِبُكُمْ مَعَنَا إِلَى بوردو.»

وَبِذَلِكَ كَانَ لَدَى فيلياس نِصْفُ سَاعَةٍ فَقَطْ لِيُسْرِعَ إِلَى الْفُنْدُقِ وَيُحْضِرَ عودا وَباسبارتو وَفيكس، ثُمَّ يَعُودَ إِلَى السَّفِينَةِ «هنريتا». وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَى فيلياس فوج مُطْلَقًا وَلَوْ ذَرَّةً وَاحِدَةً مِنَ الْقَلَقِ! تَمَكَّنَ الرُّكَّابُ الْأَرْبَعَةُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْقَارِبِ قَبْلَ الْمَوْعِدِ بِثَوَانٍ مَعْدُودَةٍ. لَمْ يَكُنْ باسبارتو يَشْعُرُ بِالِارْتِيَاحِ بَعْدَمَا عَلِمَ بالْأَمْوَالِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُهَا سَيِّدُهُ لِلْعَوْدَةِ إِلَى لَنْدَنَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِلْفَوْزِ بِالرِّهَانِ. أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِفيكس، فَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يُنْفِقُ فِيهَا فيلياس مِنَ النُّقُودِ، كَانَ يَرَى مُكَافَأَتَهُ تَتَلَاشَى؛ فَفِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ، هَذِهِ الْأَمْوَالُ الَّتِي يُنْفِقُهَا مِلْكٌ لِلْبَنْكِ، وَكُلَّمَا أَنْفَقَ اللِّصُّ مِنْ تِلْكَ النُّقُودِ، أَصْبَحَ الْمَبْلَغُ الَّذِي سَيُعِيدُهُ إِلَى الْبَنْكِ أَقَلَّ، وَكُلَّمَا قَلَّ هَذَا الْمَبْلَغُ، قَلَّتْ مُكَافَأَتُهُ. وَلَمْ تَرْفَعْ تِلْكَ الْأَفْكَارُ من مَعْنَوِيَّاتِهِ الَّتِي كَانَتْ مُنْخَفِضَةً بِالْفِعْلِ.

وَبِحُلُولِ ظُهْرِ الْيَوْمِ التَّالِي كَانَتْ «هنريتا» تُبْحِرُ بِشَكْلٍ جَيِّدٍ. وَقَفَ فيلياس فوج عَلَى سَطْحِ قِيَادَةِ السَّفِينَةِ، وَأَخَذَ يَتَطَلَّعُ عَبْرَ الْمُحِيطِ الْأَطْلَنْطِيِّ، وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، كَانَ الْقُبْطَانُ سبيدي قَدْ أَغْلَقَ كَابِينَتَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ سَعِيدًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

أَرَادَ فيلياس الذَّهَابَ إِلَى ليفربول، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ لِيَحُولَ دُونَ وُصُولِهِ إِلَى هُنَاكَ، وَكَانَ قَدْ أَخْبَرَ طَاقَمَ السَّفِينَةِ كُلَّهُ بِقِصَّتِهِ، وَعِنْدَمَا عَلِمُوا بِالْمَسَافَةِ الَّتِي قَطَعَهَا، قَرَّرُوا مُسَاعَدَتَهُ، فَتَجَاهَلُوا أَوَامِرَ الْقُبْطَانِ، وَحَدَّدُوا وُجْهَةً جَدِيدَةً لِلسَّفِينَةِ؛ نَحْوَ ليفربول.

كَانَتِ الرِّحْلَةُ الْبَحْرِيَّةُ تَسِيرُ عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ فِي أَيَّامِهَا الْأُولَى؛ فَكَانُوا يُحَافِظُونَ عَلَى سَيْرِ «هنريتا» بِأَقْصَى سُرْعَةٍ وَيُحْرِقُونَ الْمَزِيدَ مِنَ الْفَحْمِ. وَكَانُوا قَدْ عَبَرُوا نيوفاوندلاند وَخَرَجُوا إِلَى عُرْضِ الْبِحَارِ، وَكَانَ باسبارتو يُسَلِّي الْبَحَّارَةَ بِإِقَامَةِ اسْتِعْرَاضَاتٍ لَهُمْ، وَقَدْ جَعَلَتْ رُوحُ الدُّعَابَةِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا الْجَمِيعَ سُعَدَاءَ.

أَمْضَتْ عودا مُعْظَمَ الْوَقْتِ عَلَى السَّطْحِ مَعَ فيلياس الَّذِي حَاوَلَ أَنْ يُهَدِّئَ مِنْ رُوعِهَا؛ فَكَانَتْ قَلِقَةً حَقًّا حِيَالَ مَا سَيَنْتَهِي إِلَيْهِ الْأَمْرُ.

وَفَجْأَةً تَبَدَّلَ الطَّقْسُ، فَعُبُورُ الْمُحِيطِ الْأَطْلَنْطِيِّ فِي الشِّتَاءِ يَنْطَوِي عَلَى الْكَثِيرِ مِنَ الْمَخَاطِرِ؛ فَهُنَاكَ الْعَوَاصِفُ الشَّدِيدَةُ وَالْأَمْوَاجُ الْعَتِيَّةُ؛ فَفِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ الْقَارِبُ عَنْ مَسَارِهِ أَوْ تَقْلِبُهُ الْأَمْوَاجُ. وَبَدَلًا مِنَ الِاعْتِمَادِ عَلَى الرِّيَاحِ فِي الْإِبْحَارِ، كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَى الْمُحَرِّكِ فَقَطْ، وَكَانَ الْفَحْمُ هُوَ مَصْدَرَ الطَّاقَةِ الْوَحِيدَ الَّذِي يَدْفَعُهُمْ إِلَى الْأَمَامِ.

وَفِي السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ دِيسَمْبِرَ، صَعِدَ الْمَسْئُولُ عَنِ الْمُحَرِّكِ فِي السَّفِينَةِ إِلَى السَّطْحِ لِيُبْلِغَ فيلياس أَنَّ الْفَحْمَ قَدْ أَوْشَكَ عَلَى النَّفَادِ.

فَقَالَ فيلياس لِلرَّجُلِ: «دَعْنِي أُفَكِّرْ فِي الْأَمْرِ لِوَهْلَةٍ.»

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الِاثْنَيْنِ وَفيلياس يُفَكِّرُ مَاذَا يَفْعَلُ، ثُمَّ قَالَ: «اجْعَلِ الْمُحَرِّكَاتِ تَعْمَلُ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ كَمَا هِيَ، لَقَدْ وَجَدْتُ حَلًّا. باسبارتو!»

قَفَزَ الْخَادِمُ مِنَ السَّطْحِ السُّفْلِيِّ وَوَقَفَ أَمَامَهُ، فَقَالَ لَهُ فيلياس: «مِنْ فَضْلِكَ اطْلُبْ مِنَ الْقُبْطَانِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ كَابِينَتِهِ.» فَأَوْمَأَ باسبارتو بِرَأْسِهِ فِي طَاعَةٍ.

لَمْ يَكُنِ الْقُبْطَانُ يَرْغَبُ فِي التَّحَرُّكِ مِنْ مَكَانِهِ، فَقَدْ كَانَ يَسْتَشِيطُ غَضَبًا لِأَنَّ فيلياس فوج قَدِ اسْتَوْلَى عَلَى سَفِينَتِهِ، فَلَمْ يَكُنْ يُرِيدُ التَّحَدُّثَ مَعَهُ، نَاهِيكَ عَنِ الصُّعُودِ إِلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ، وَلَكِنَّ باسبارتو أَصَرَّ.

صَاحَ الْقُبْطَانُ: «أَيْنَ نَحْنُ؟»

أَجَابَهُ فيلياس: «عَلَى بُعْدِ سَبْعِمِائَةٍ وَسَبْعِينَ مِيلًا مِنْ ليفربول.»

صَرَخَ الْقُبْطَانُ سبيدي: «قُرْصَانٌ! لِصٌّ!»

قَالَ فيلياس: «سَيِّدِي، سَنَحْتَاجُ لِإِشْعَالِ سَطْحِ السَّفِينَةِ، فَالْفَحْمُ لَدَيْنَا يَكَادُ أَنْ يَنْفَدَ.»

قَالَ الْقُبْطَانُ سبيدي: «تـ... تُحْرِقُ سـ... سَفِينَتِي؟ بِالطَّبْعِ لَا!»

بَحَثَ فيلياس فِي جَيْبِهِ وَأَخْرَجَ رِزْمَةً كَبِيرَةً مِنَ الْأَمْوَالِ: «إِلَيْكَ هَذَا الْمَبْلَغ، إِنَّهُ كَافٍ لِشِرَاءِ قَارِبَيْنِ آخَرَيْنِ، وَسَيُعَوِّضُكَ ذَلِكَ عَنِ الْأَضْرَارِ الَّتِي سَبَّبْتُهَا لَكَ وَلِهَذَا الْقَارِبِ.»

أَخَذَ الْقُبْطَانُ سبيدي الْمَالَ بِهُدُوءٍ، وَنَسِيَ غَضَبَهُ وَمَا يَحْمِلُهُ مِنْ ضَغِينَةٍ تِجَاهَ فيلياس فوج؛ وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ: «إِذَا كَانَ هَذَا الرَّجُلُ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِأَنْ يَدْفَعَ كُلَّ مَا يَمْلِكُ لِلْوُصُولِ إِلَى ليفربول، فَيُمْكِنُنِي أَنْ أُسَاعِدَهُ فِي ذَلِكَ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ آخَرُ يُمْكِنُنِي أَنْ أَفْعَلَهُ، كَمَا أَنَّ سَفِينَتَيْنِ سَتُوَفِّرَانِ لِي حَيَاةً كَرِيمَةً أَكْثَرَ مِنْ سَفِينَةٍ وَاحِدَةٍ.»

فَقَالَ سبيدي: «اعْتَبِرِ السَّفِينَةَ «هنريتا» مِلْكَكَ يَا سَيِّدُ، أَعْنِي، يَا قُبْطَانُ فوج.»

وَعَلَى مَدَارِ الْأَيَّامِ الْقَلِيلَةِ التَّالِيَةِ أَحْرَقَ الطَّاقَمُ أَجْزَاءً مِنَ السَّفِينَةِ لِمُسَاعَدَتِهَا عَلَى مُوَاصَلَةِ رِحْلَتِهَا. وَوَصَلَ الْمُسَافِرُونَ إِلَى مِينَاءِ ليفربول، وَلَدَيْهِمْ تِسْعُ سَاعَاتٍ فَقَطْ قَبْلَ انْتِهَاءِ الْمَوْعِدِ.

نَزَلَ فيلياس فوج وَعودا وَباسبارتو سَرِيعًا مِنْ عَلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ «هنريتا» الَّتِي تَرَكُوهَا لِلْقُبْطَانِ سبيدي، وَوَطِئَتْ أَقْدَامُهُمْ أَخِيرًا الْأَرَاضِيَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ.

وَفِي التَّوِّ، نَزَلَ فيكس وَرَاءَهُمْ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى كَتِفِ فيلياس.

وَسَأَلَهُ: «هَلْ أَنْتَ فيلياس فوج؟»

– «نَعَمْ.»

قَالَ فيكس وَهُوَ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ مُذَكِّرَةَ الْقَبْضِ عَلَى فيلياس: «إِذَنْ أَنَا أُلْقِي الْقَبْضَ عَلَيْكَ بِاسْمِ جَلَالَةِ الْمَلِكَةِ.»

الفصل السادس عشر

خَسَارَةُ الرِّهَانِ!

كَانَ فيلياس فوج رَهْنَ الِاعْتِقَالِ فِي مَصْلَحَةِ الْجَمَارِكِ مُنْذُ أَنْ أَلْقَى فيكس الْقَبْضَ عَلَيْهِ قَبْلَ بِضْعِ دَقَائِقَ، وَكَانَ مِنَ الْمُزْمَعِ إِرْسَالُهُ إِلَى لَنْدَنَ فِي غُضُونِ دَقَائِقَ.

وَعِنْدَمَا رَأَى باسبارتو فيكس يُلْقِي الْقَبْضَ عَلَى سَيِّدِهِ، حَاوَلَ أَنْ يَهْجُمَ عَلَى الْمُحَقِّقِ فيكس فِي نَوْبَةِ غَضَبٍ، وَلَكِنْ كَانَ هُنَاكَ رِجَالُ شُرْطَةٍ بِجَانِبِ الْمُفَتِّشِ فَمَنَعُوهُ مِنْ ذَلِكَ. كَانَتْ عودا مَصْعُوقَةً مِمَّا يَحْدُثُ، وَلَمْ تَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَشَرَحَ لَهَا باسبارتو كُلَّ شَيْءٍ، فَأَخْبَرَهَا أَنَّ فيكس يَظُنُّ أَنَّ فيلياس فوج هُوَ سَارِقُ الْمَصْرِفِ، وَأَوْضَحَ لَهَا كَيْفَ تَعَقَّبَهُمَا حَوْلَ الْعَالَمِ.

ثُمَّ فَكَّرَ باسبارتو: «هَلْ كُلُّ هَذَا خَطَئِي؟ مَاذَا لَوْ كُنْتُ أَخْبَرْتُ سَيِّدِي عَنْ فيكس مُنْذُ الْبِدَايَةِ؟ هَلْ كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ أَمْنَعَ اعْتِقَالَهُ؟ رُبَّمَا كَانَ سَيِّدِي سَيَسْتَطِيعُ إِقْنَاعَ فيكس بِبَرَاءَتِهِ!»

وَلَكِنْ كَانَ الْأَوَانُ قَدْ فَاتَ عَلَى الْقِيَامِ بِأَيِّ شَيْءٍ، جَلَسَ باسبارتو فِي مَصْلَحَةِ الْجَمَارِكِ يَبْكِي، وَكَانَتْ عودا أَيْضًا هُنَاكَ؛ فَلَمْ يَشَأْ أَيٌّ مِنْهُمَا أَنْ يُغَادِرَ حَتَّى يَرَيَا فيلياس.

لَمْ يَعُدْ لَدَى فيلياس فوج أَيُّ فُرَصٍ أُخْرَى؛ فَكَانَ عَلَيْهِ الْوُجُودُ فِي نَادِي «ريفورم كلوب» بَعْدَ تِسْعِ سَاعَاتٍ بِالضَّبْطِ، وَكَانَتِ الرِّحْلَةُ مِنْ ليفربول إِلَى لَنْدَنَ تَسْتَغْرِقُ سِتَّ سَاعَاتٍ، وَلَكِنَّهُ الْآنَ رَهْنُ الِاعْتِقَالِ، فَلَا يُوجَدُ أَيُّ ضَمَانٍ بِأَنَّهُ سَيَصِلُ إِلَى لَنْدَنَ فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ لِتَبْرِئَةِ سَاحَتِهِ، نَاهِيكَ عَنِ الذَّهَابِ إِلَى نَادِي «ريفورم كلوب» فِي الْوَقْتِ الْمُنَاسِبِ.

جَلَسَ فيلياس فوج فِي زِنْزَانَتِهِ لَا يُحَرِّكُ سَاكِنًا، وَبِالرَّغْمِ مِنْ قَسْوَةِ الْمَقْعَدِ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ وَالْمُسْتَقْبَلِ الْغَامِضِ الَّذِي يَنْتَظِرُهُ، لَمْ يَبْدُ عَلَى مَلَامِحِهِ أَيُّ مَشَاعِرَ، لَقَدْ ظَلَّ

جَالِسًا فِي مَكَانِهِ، يَنْتَظِرُ ... يَنْتَظِرُ مَاذَا؟ هَلْ لَا يَزَالُ لَدَيْهِ أَمَلٌ فِي الْفَوْزِ بِالرِّهَانِ؟ حَتَّى وَهُوَ يَقِفُ خَلْفَ أَسْوَارِ السِّجْنِ؟ هَلْ لَا تَزَالُ أَمَامَهُ فُرْصَةٌ لِلْفَوْزِ؟

وَضَعَ فيلياس سَاعَتَهُ بِحِرْصٍ بِجَانِبِهِ، وَنَظَرَ يُرَاقِبُ عَقَارِبَهَا وَهِيَ تَتَحَرَّكُ. لَمْ يَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ، وَكَانَ الْمَوْقِفُ بِبَسَاطَةٍ كَالْآتِي: إِذَا كَانَ فيلياس فوج شَرِيفًا، فَلَقَدْ أَفْلَسَ؛ وَإِنْ كَانَ هُوَ اللِّصَّ، فَلَقَدْ قُبِضَ عَلَيْهِ.

هَلْ فَكَّر فِي الْهُرُوبِ؟ رُبَّمَا مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ، وَهُوَ يَسِيرُ بِبُطْءٍ فِي الزِّنْزَانَةِ، وَلَكِنْ لَا أَمَلَ فِي ذَلِكَ؛ فَالْبَابُ كَانَ مُوصَدًا بِإِحْكَامٍ وَكَانَتْ هُنَاكَ قُضْبَانٌ حَدِيدِيَّةٌ عَلَى النَّوَافِذِ. فَجَلَسَ وَأَخْرَجَ دَفْتَرَ يَوْمِيَّاتِهِ مِنْ جَيْبِهِ، وَكَتَبَ «السَّبْتُ الْمُوَافِقُ الْحَادِيَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ دِيسَمْبِرَ، ليفربول»، ثُمَّ أَضَافَ «الْيَوْمُ الثَّمَانُونَ، السَّاعَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعُونَ دَقِيقَةً صَبَاحًا»، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ بِوُسْعِهِ سِوَى الِانْتِظَارِ.

دَقَّتْ سَاعَةُ مَصْلَحَةِ الْجَمَارِكِ مُعْلِنَةً الْوَاحِدَةَ ظُهْرًا، لَقَدْ كَانَتْ سَاعَتُهُ مُتَأَخِّرَةً سَاعَتَيْنِ! لَقَدْ أَضَاعُوا الْوَقْتَ فِي مَكَانٍ مَا فِي الرِّحْلَةِ، فَكَّرَ فيلياس أَنَّهُ لَوْ كَانَ عَلَى مَتْنِ الْقِطَارِ السَّرِيعِ، لَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى لَنْدَنَ ثُمَّ إِلَى نَادِي «ريفورم كلوب» فِي الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لِلْفَوْزِ بِالرِّهَانِ. لَكِنْ لِلْأَسَفِ، كَانَ دَاخِلَ أَسْوَارِ السِّجْنِ، وَمَرَّتْ سَاعَةٌ وَنِصْفٌ أُخْرَى قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ ضَوْضَاءَ بِالْخَارِجِ، لَقَدْ كَانَ باسبارتو وَكَانَتْ عَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ قَلِيلًا.

فُتِحَ الْبَابُ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ وَرَأَى فيلياس باسبارتو وَعودا وَفيكس الَّذِي انْدَفَعَ تُجَاهَهُ.

كَانَ فيكس يَلْهَثُ وَشَعْرُهُ يَبْدُو أَشْعَثَ، وَتَهْتَهَ قَائِلًا: «يَا سَيِّدِي، سَـ... سَـ... سَـ... يِّـ... دِ... ي، سَامِحْنِي ... لَقَدْ كَانَ ... خَطَأً ... كَانَ يَبْدُو شَبَهَكَ تَمَامًا ... ذَلِكَ اللِّصُّ ... وَهُوَ ... هُـ... هُـ... و... أُلْقِيَ الْقَبْضُ عَلَيْهِ مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامٍ مَضَتْ! أَنْتَ حُرٌّ!»

وَكَانَ اللِّصُّ الْحَقِيقِيُّ — وَاسْمُهُ جيمس ستراند — قَدْ أُلْقِيَ الْقَبْضُ عَلَيْهِ فِي أَدِنْبَرَةَ مُنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. لَقَدْ كَانَ فيلياس فوج بَرِيئًا! فَوَقَفَ فيلياس وَعَدَّلَ مِعْطَفَهُ، ثُمَّ اتَّجَهَ مُسْرِعًا نَحْوَ الْمُحَقِّقِ فيكس، وَسَدَّدَ لَهُ لَكْمَةً قَوِيَّةً فِي أَنْفِهِ طَرَحَتْهُ أَرْضًا عَلَى الْفَوْرِ!

فَقَالَ باسبارتو: «أَحْسَنْتَ عَمَلًا يَا سَيِّدِي!» لَمْ يُحَرِّكْ فيكس سَاكِنًا، فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ. غَادَرَ فيلياس وَعودا وَباسبارتو مَصْلَحَةَ الْجَمَارِكِ فِي عَجَلَةٍ، وَقَفَزُوا فِي سَيَّارَةِ أُجْرَةٍ لِلْوُصُولِ إِلَى مَحَطَّةِ الْقِطَارِ بِسُرْعَةٍ.

قَالَ باسبارتو وَهُوَ لَا يُخَاطِبُ أَحَدًا بِعَيْنِهِ: «هَلْ فَاتَتْنَا كُلُّ الْقِطَارَاتِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى لَنْدَنَ؟»

قَالَ فيلياس: «دَعْنِي أَتَحَرَّ الْأَمْرَ!» فَذَهَبَ إِلَى شُبَّاكِ التَّذَاكِرِ، وَسَأَلَ الْمُوَظَّفَ إِذَا كَانَ هُنَاكَ أَيُّ قِطَارٍ سَرِيعٍ سَيُغَادِرُ بَعْدَ قَلِيلٍ.

أَجَابَهُ الْمُوَظَّفُ: «آسِفٌ يَا سَيِّدِي، لَقَدْ غَادَرَ مُنْذُ خَمْسِ دَقَائِقَ فَقَطْ!»

قَالَتْ عودا: «لَا، يَا إِلَهِي! لَنْ نَسْتَطِيعَ الْوُصُولَ إِلَى هُنَاكَ فِي الْمَوْعِدِ أَبَدًا.»

قَالَ فيلياس: «عِنْدِي فِكْرَةٌ، دَعِينِي أَتَحَرَّ إِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ اسْتِئْجَارُ قِطَارٍ لِيُقِلَّنَا إِلَى لَنْدَنَ، انْتَظِرِي هُنَا.»

تَحَدَّثَ فيلياس مَعَ الْمُوَظَّفِ الَّذِي اسْتَدْعَى مُدِيرَ الْمَحَطَّةِ، وَنَاقَشَ الرَّجُلَانِ الْمَوْقِفَ، وَبَعْدَ مُرُورِ بِضْعِ دَقَائِقَ، عَادَ فيلياس إِلَى باسبارتو وَعودا.

وَقَالَ: «لَقَدِ اسْتَأْجَرْتُ قِطَارًا خَاصًّا، وَسَنُغَادِرُ فِي الثَّالِثَةِ مَسَاءً.»

وَأَخِيرًا، كَانَ الْمُسَافِرُونَ الثَّلَاثَةُ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي الْمَحَطَّةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ رِحْلَتِهِمْ، وَعِنْدَمَا هَبَطَ فيلياس فوج عَلَى الرَّصِيفِ فِي لَنْدَنَ، كَانَتْ عَقَارِبُ السَّاعَةِ تُشِيرُ إِلَى التَّاسِعَةِ إِلَّا عَشْرَ دَقَائِقَ! لَقَدْ وَصَلَ مُتَأَخِّرًا خَمْسَ دَقَائِقَ بَعْدَ أَنْ جَابَ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا. لَقَدْ خَسِرَ الرِّهَانَ!

الفصل السابع عشر

الْفَوْزُ بِالرِّهَانِ!

كَانَتْ جَمِيعُ أَبْوَابِ وَنَوَافِذِ مَنْزِلِ فيلياس فوج فِي شَارِعِ سافيل رو مُغْلَقَةً، وَالسَّتَائِرُ مُسْدَلَةً، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ إِشَارَاتٍ فِي الْمَنْزِلِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ عَادَ، لَقَدْ أَفْلَسَ بِسَبَبِ مُحَقِّقٍ سَخِيفٍ. أَفْلَسَ!

بَعْدَ أَنْ قَطَعَ كُلَّ تِلْكَ الْأَمْيَالِ، وَبَعْدَ التَّغَلُّبِ عَلَى كَافَّةِ الْأَخْطَارِ الَّتِي وَاجَهَهَا وَالْعَوَاقِبِ الَّتِي وَقَفَتْ فِي طَرِيقِهِ، ضَاعَ ذَلِكَ هَبَاءً! لَقَدْ كَانَ يَدِينُ بِبَاقِي ثَرْوَتِهِ إِلَى أَصْدِقَائِهِ فِي نَادِي «ريفورم كلوب»، وَكَانَ كُلُّ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ نُقُودٍ هُوَ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ الضَّئِيلَ الْمُتَبَقِّيَ فِي حَقِيبَتِهِ الْقُمَاشِيَّةِ.

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، خَلَدَ فيلياس إِلَى النَّوْمِ مُثْقَلًا بِالْهُمُومِ وَالْأَحْزَانِ، وَكَذَلِكَ عودا الَّتِي شَعَرَتْ بِالْأَسَفِ حِيَالَ الرَّجُلِ الَّذِي أَنْقَذَ حَيَاتَهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْرِفْ مَا يُمْكِنُهَا أَنْ تَفْعَلَهُ لِمُسَاعَدَتِهِ الْآنَ.

فِي الصَّبَاحِ التَّالِي، عِنْدَمَا أَحْضَرَ باسبارتو لَهُ الْفَطُورَ، طَلَبَ مِنْهُ فيلياس أَنْ يُخْبِرَ عودا بِأَنَّهُ يَوَدُّ أَنْ يَرَاهَا بَعْدَ الْعَشَاءِ؛ فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَمْضِيَ يَوْمَهُ فِي التَّأَكُّدِ مِنْ أَنَّ شُئُونَهُ تَسِيرُ عَلَى مَا يُرَامُ. وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ حُزْنًا وَأَثْقَلُهُمْ هَمًّا هُوَ الْخَادِمَ الْمُخْلِصَ الَّذِي كَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُمْ خَسِرُوا الرِّهَانَ بِسَبَبِ خَطَئِهِ هُوَ؛ فَلَوْ أَنَّهُ أَخْبَرَ سَيِّدَهُ بِأَمْرِ الْمُحَقِّقِ، لَكَانَ الْمَوْقِفُ قَدْ تَغَيَّرَ.

لَمْ يَسْتَطِعْ باسبارتو السَّيْطَرَةَ عَلَى مَشَاعِرِهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «لَكِنْ يَا سَيِّدِي! لِمَاذَا لَسْتَ غَاضِبًا مِنِّي؟ فَكُلُّ ذَلِكَ خَطَئِي.»

– «أَنَا لَا أُلْقِي بِاللَّوْمِ عَلَى أَحَدٍ يَا باسبارتو. الْآنَ، مِنْ فَضْلِكَ اذْهَبْ وَأَخْبِرِ الْآنِسَةَ عودا.»

– «أَمْرُكَ يَا سَيِّدِي.» وَانْطَلَقَ باسبارتو لِيُخْبِرَ عودا أَنَّ فيلياس يَوَدُّ التَّحَدُّثَ إِلَيْهَا بَعْدَ الْعَشَاءِ.

لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ لَمْ يَتَوَجَّهْ فيلياس إِلَى نَادِي «ريفورم كلوب» فِي تَمَامِ السَّابِعَةِ وَالنِّصْفِ. ولِمَاذَا يَذْهَبُ؟ لَقَدْ تَأَخَّرَ يَوْمًا عَنِ الْمَوْعِدِ، وَكَانَ الشِّيكُ مَعَ أَصْدِقَائِهِ بِالْفِعْلِ، فَكَانَ كُلُّ مَا عَلَيْهِمْ هُوَ الذَّهَابَ إِلَى الْبَنْكِ لِصَرْفِ الْمَالِ؛ لِذَلِكَ ظَلَّ فيلياس فِي الْمَنْزِلِ، وَظَلَّ فِي غُرْفَتِهِ، وَاسْتَغْرَقَ فِي تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ عودا. فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، كَانَ باسبارتو فَقَطْ هُوَ مَنْ يَتَجَوَّلُ فِي جَمِيعِ الْأَنْحَاءِ لِيُلَبِّيَ نِدَاءَ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ.

بَعْدَ الْعَشَاءِ، جَلَسَ فيلياس وَعودا لِيَتَحَدَّثَا، فَقَالَ فيلياس: «عودا، هَلَّا تُسَامِحِينَنِي لِاصْطِحَابِكِ إِلَى إِنْجِلْتِرَا؟ عِنْدَمَا ...»

– «مَاذَا تَقُولُ؟ لَقَدْ أَنْقَذْتَ حَيَاتِي!»

فَتَابَعَ: «أَرْجُوكِ، دَعِينِي أُكْمِلْ حَدِيثِي، عِنْدَمَا أَحْضَرْتُكِ إِلَى هُنَا، بَعِيدًا عَنْ وَطَنِكِ، كُنْتُ رَجُلًا ثَرِيًّا، وَكَانَ بِإِمْكَانِي مُسَاعَدَتُكِ لِبَدْءِ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ، أَمَّا الْآنَ فَأَنَا مُفْلِسٌ.»

قَالَتْ عودا: «أَعْلَمُ يَا عَزِيزِي فيلياس، وَلَكِنْ كُلُّ مَا أَطْلُبُهُ مِنْكَ هُوَ أَنْ تُسَامِحَنِي لِأَنَّنِي كُنْتُ جُزْءًا مِنْ ذَلِكَ الدَّمَارِ الَّذِي لَحِقَ بِكَ؛ فَلَقَدْ كَانَ خَطَئِي لِأَنَّكَ اضْطُرِرْتَ لِإِنْقَاذِي.»

– «هَذَا هُرَاءٌ، لَقَدْ كُنْتِ بِحَاجَةٍ إِلَى الْأَمَانِ، وَهَا أَنْتِ ذِي آمِنَةٌ الْآنَ.»

فَقَالَتْ: «هَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنْ مَاذَا سَيَحْدُثُ لَكَ؟»

نَظَرَ فيلياس إِلَى الْفَتَاةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي تَجْلِسُ أَمَامَهُ وقال: «لَيْسَ لَدَيَّ أَصْدِقَاءُ حَقِيقِيُّونَ، وَلَا عَائِلَةٌ، وَلَكِنَّنِي سَأَكُونُ عَلَى مَا يُرَامُ.»

فَقَالَتْ عودا: «حَسَنًا، إِذَا قَبِلْتَ بِي زَوْجَةً لَكَ، فَسَأَكُونُ عَائِلَتَكَ، وَيُمْكِنُنَا مُوَاجَهَةُ الْمُسْتَقْبَلِ مَعًا.»

نَهَضَ فيلياس وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ، وَلَمْ يَعْرِفْ مَاذَا يَقُولُ، فَقَطْ لَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَارْتَجَفَتْ شَفَتَاه، وَلَمْ تَتَفَوَّهْ عودا بِكَلِمَةٍ، بَلْ وَقَفَتْ تَنْتَظِرُ أَنْ يَتَحَدَّثَ هُوَ.

فَقَالَ: «إِنَّنِي أُحِبُّكِ حَقًّا! نَعَمْ، بِحَقِّ السَّمَاءِ إِنَّنِي أُحِبُّكِ! لِنَتَزَوَّجْ.» وَأَمْسَكَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِيَدِ الْآخَرِ بِقُوَّةٍ وَتَشَابَكَتْ أَيدِيهِمَا.

دَخَلَ باسبارتو إِلَى الْغُرْفَةِ، وَرَأَى كِلَيهِمَا يَبْتَسِمُ فِي سَعَادَةٍ.

قَالَ فيلياس: «سَنَتَزَوَّجُ! هَلْ تظُنُّ أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ تَأَخَّرَ لِلتَّحَدُّثِ إِلَى الْكَاهِنِ فِي أَبْرَشِيَّةِ ماريليبون؟»

سَأَلَ باسبارتو: «هَلْ تَرْغَبَانِ فِي عَقْدِ الزَّوَاجِ غَدًا، يَوْمَ الإِثْنَيْنِ؟»

أَجَابَ فيلياس: «نَعَمْ، غَدًا.»

وَرَدَّدَتْ عودا: «نَعَمْ.»

فَأَطْلَقَ باسبارتو سَاقَيْهِ لِلرِّيحِ.

هُرِعَ باسبارتو عَائِدًا إِلَى غُرْفَةِ الْجُلُوسِ حَيْثُ كَانَ فيلياس وَعودا يَنْتَظِرَانِهِ.

وَقَالَ وَهُوَ يَلْهَثُ: «الزَّوَاجُ ... مُسْتَحِيلٌ غَدًا.»

– «مَا الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ؟»

– «غَدَ ... غَدًا هُوَ يَوْمُ الأَحَدِ.»

أَصَرَّ فيلياس: «كَلَّا، إِنَّهُ يَوْمُ الإِثْنَيْنِ.»

قَالَ باسبارتو: «كَلَّا فَالْيَوْمَ هُوَ ... هُوَ السَّبْتُ.»

ثُمَّ جَذَبَ فيلياس مِنْ يَاقَتِهِ وَدَفَعَهُ مَعَهُ، وَقَفَزَا فِي سَيَّارَةِ أُجْرَةٍ، وَكَانَتْ عَقَارِبُ السَّاعَةِ تُشِيرُ إِلَى الثَّامِنَةِ وَالنِّصْفِ مِنْ مَسَاءِ يَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ دِيسَمْبِرَ، وَكَانَ لَدَى فيلياس فوج خَمْسَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً فَقَطْ لِلْوُصُولِ إِلَى نَادِي «ريفورم كلوب».

جَلَسَ شُرَكَاءُ فيلياس فوج فِي لُعْبَةِ البريدج فِي الْقَاعَةِ الْكُبْرَى فِي نَادِي «ريفورم كلوب» يُرَاقِبُونَ السَّاعَةَ، وأَخَذُوا يَنْظُرُونَ إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ، وَحَاوَلُوا تَمْضِيَةَ الْوَقْتِ فِي قِرَاءَةِ الصُّحُفِ، وَبِالطَّبْعِ كَانَ مِحْوَرُ حَدِيثِ الصُّحُفِ هُوَ فيلياس فوج؛ لِذَلِكَ كَانَ مِنَ الصَّعْبِ تَجَنُّبُ الْمَوْضُوعِ!

قَالَ توماس: «حَسَنًا أَيُّهَا السَّادَةُ، لَدَى فيلياس رُبْعُ سَاعَةٍ فَقَطْ قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ الْمَوْعِدُ الْمُحَدَّدُ، هَلْ تَظُنُّونَ أَنَّهُ سَيَنْجَحُ؟»

فَقَالَ أندرو: «لَوْ كَانَ قَدِ اسْتَقَلَّ الْقِطَارَ الَّذِي يَنْطَلِقُ فِي تَمَامِ السَّابِعَةِ وَثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ دَقِيقَةً مِنْ ليفربول، لَكَانَ قَدْ وَصَلَ إِلَى هُنَا بِالْفِعْلِ؛ أَعْتَقِدُ أَنَّنَا رَبِحْنَا.»

قَالَ صموئيل: «لَا أَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَيْنَا اسْتِعْجَالُ الْأُمُورِ الْآنَ، فَفيلياس دَائِمًا يَصِلُ فِي مَوْعِدِهِ الْمُحَدَّدِ تَمَامًا.»

قَالَ توماس: «لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ تَزَالُ كَمَا هِيَ؛ فَهَذِهِ الرِّحْلَةُ بِأَكْمَلِهَا كَانَتْ نَوْعًا مِنَ الْمُقَامَرَةِ، وَالتَّأْخِيرُ لِمُدَّةِ يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى فُرْصَتِهِ فِي الْعَوْدَةِ فِي مَوْعِدِهِ الْمُحَدَّدِ.»

أَصَرَّ أندرو: «لَقَدْ خَسِرَ أَيُّهَا السَّادَةُ، لَقَدْ خَسِرَ؛ فَالْبَاخِرَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَتْنِهَا هِيَ «تشاينا»، وَأَنَا أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى مَتْنِهَا. وَفِي ظَنِّي أَنَّهُ مُتَأَخِّرٌ عَلَى الْأَقَلِّ عِشْرِينَ يَوْمًا.»

فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ كَانَتْ عَقَارِبُ السَّاعَةِ تُشِيرُ إِلَى الثَّامِنَةِ وَأَرْبَعِينَ دَقِيقَةً، فَقَالَ رالف: «لَمْ يَتَبَقَّ سِوَى خَمْسِ دَقَائِقَ، أَعْتَقِدُ أَنَّ أندرو سَيَصْرِفُ الشِّيكَ مِنَ الْبَنْكِ غَدًا.»

نَظَرَ الرِّجَالُ الْخَمْسَةُ إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ، وَكَانُوا جَمِيعًا يَشْعُرُونَ بِالْقَلَقِ، وَحَاوَلُوا الْتِقَاطَ أَوْرَاقِهِمْ وَإِنْهَاءَ الْجَوْلَةِ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَيٌّ مِنْهُمْ أَنْ يُبْعِدَ نَاظِرَيْهِ عَنِ السَّاعَةِ.

بَدَأَتِ الثَّوَانِي فِي الْعَدِّ التَّنَازُلِيِّ: خَمْسُونَ، وَاحِدٌ وَخَمْسُونَ، اثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ. وَفِي الْخَامِسَةِ وَالْخَمْسِينَ، سَمِعُوا صَوْتَ جَلَبَةٍ عَالِيَةٍ بِالْخَارِجِ تَبِعَهَا تَصْفِيقٌ، وَوَقَفَ الرِّجَالُ الْخَمْسَةُ، وَفِي الثَّانِيَةِ السَّابِعَةِ وَالْخَمْسِينَ، فَتَحَ فيلياس فوج بَابَ الْقَاعَةِ الْكُبْرَى، وَقَالَ: «هَأَنَذَا أَيُّهَا السَّادَةُ!»

لَقَدِ اسْتَطَاعَ فيلياس فوج السَّفَرَ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي ثَمَانِينَ يَوْمًا، وَفَازَ بِالرِّهَانِ، وَلَكِنْ كَيْفَ؟ أَيْنَ سَقَطَ ذَلِكَ الْيَوْمُ مِنْ حِسَابَاتِهِ؟ لَا سِيَّمَا بِالنِّسْبَةِ لِشَخْصٍ يَحْرِصُ بِشِدَّةٍ عَلَى مُرَاقَبَةِ الْوَقْتِ. يَبْدُو أَنَّ فيلياس وَباسبارتو قَدْ نَسِيَا وَضْعَ الْمَنَاطِقِ الزَّمَنِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي عَيْنِ الِاعْتِبَارِ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُمَا عِنْدَمَا سَافَرَا إِلَى الشَّرْقِ، كَانَا يَرْبَحَانِ سَاعَةً هُنَا وَهُنَاكَ، وَعِنْدَمَا عَادَا إِلَى لَنْدَنَ كَانَ لَدَيْهِمَا يَوْمٌ كَامِلٌ! وَلَوْ كَانَتْ سَاعَتُهُمَا تُشِيرُ إِلَى الْأَيَّامِ أَيْضًا بَدَلًا مِنَ السَّاعَاتِ فَقَطْ، لَأَدْرَكَا هَذَا!

إِذَنْ لَمْ يَخْسِرْ فيلياس ثَرْوَتَهُ، وَكَانَ مَسْرُورًا بِذَلِكَ، وَلَكِنْ كَانَ هُنَاكَ سُؤَالٌ آخَرُ يَدُورُ بِذِهْنِهِ «هَلْ لَا تَزَالُ عودا تُوَافِقُ عَلَى الزَّوَاجِ مِنْهُ؟»

فَقَالَتْ هِيَ: «أَعْتَقِدُ أَنَّهُ عَلَيَّ أَنَا أَنْ أَسْأَلَكَ هَذَا السُّؤَالَ، الْآنَ وَبَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتَ ثَرِيًّا مَرَّةً أُخْرَى، هَلْ لَا تَزَالُ تَرْغَبُ فِي الزَّوَاجِ بِي؟»

فَأَجَابَهَا: «عَزِيزَتِي عودا، لَوْلَاكِ مَا كَانَ لَدَيَّ أَيُّ أَمْوَالٍ، إِذَا لَمْ تَطْلُبِي مِنِّي أَنْ أَتَزَوَّجَكِ، لَمْ يَكُنْ باسبارتو لِيَذْهَبَ لِرُؤْيَةِ الْكَاهِنِ.»

فَقَالَتْ: «يَا إِلَهِي، عَزِيزِي فيلياس، كَمْ أَنْتَ رَائِعٌ!»

بَعْدَ يَوْمَيْنِ، كَانَ فيلياس وَعودا قَدْ تَزَوَّجَا، وَاسْتَمَرَّ باسبارتو فِي عَمَلِهِ خَادِمًا لَهُمَا، وَكَانَ سَعِيدًا فِي وَظِيفَتِهِ.

لَقَدْ فَازَ فيلياس فوج بِالرِّهَانِ، وَقَامَ بِجَوْلَةٍ رَائِعَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ؛ فَقَدْ رَكِبَ الْفِيلَ، وَاشْتَرَى قَارِبًا، وَاسْتَقَلَّ الْعَدِيدَ مِنَ الْقِطَارَاتِ، وَأَبْحَرَ عَلَى مَتْنِ الْعَدِيدِ مِنَ الْبَوَاخِرِ، وَحَظِيَ بِمُغَامَرَةٍ رَائِعَةٍ. فَمَاذَا رَبِحَ مُقَابِلَ عَنَائِهِ؟ حَسَنًا، لَقَدْ فَازَ بِامْرَأَةٍ رَائِعَةٍ، جَعَلَتْهُ يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ فِي حَيَاتِهِ، أَوَلَيْسَ ذَلِكَ كَافِيًا لِأَيِّ رَجُلٍ صَالِحٍ؟